دراسات في الإسلام

تصدرها
وزارة الأوقاف
المجلس الأعلى للشئون الإسلامية

الإسلام أنصف المرأة

(أباطيل تدفعها حقائق)

للدكتور عبد الغني عوض الراجحي

وزارة الأوقاف

يصدرها المجلس الأعلى للشئون الإسلامية - القاهرة

العدد ٢٠٥

دراسات فى الاسلام
تصدرها
وزارة الأوقاف
المجلس الأعلى للشئون الإسلامية

الاسلام أنصف المرأة

(أباطيل تدفعها حقائق)

للدكتور عبد الغنى عوض الراجحى

العدد ٢٠٥
السنة الثامنة عشرة
١٥ من ربيع الثانى سنة ١٣٩٨ هـ
٢٤ من مارس سنة ١٩٧٨ م

يشرف على إصدارها ، وزارة الأوقاف
بجمهورية مصر العربية

المجلس الأعلى للشئون الاسلامية

الله

جل جلاله

بسم الله الرحمن الرحيم

قال تعالى :

«من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون»

(صدق الله العظيم)

مقدمة الكتاب

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على خاتم المرسلين ، وعلى آله وأصحابه ، والتابعين .

وبعد . .

فموضوع هذا الكتاب : مقال مترجم عن مجلة ألمانية تصدر بمدينة همبورج تحت اسم (شتيرن) وهو لكاتب اسمه «جورديان ترولر» شاركته فى إعداده كاتبة اسمها «كلاوده ديفارجه» وهذا الكاتب : يتحدث عن مشاهداته فى بلاد العروبة والإسلام ، البلاد التى مرّ بها ، وتنقل فيها ، وعاش فى أرجائها من الزمن سنتين – على ما يقول – ثم لما رجع إلى بلاده أخذ يقدم حصيلة رحلته فى أسلوب مبالغ فيه ، متهجماً على العرب والمسلمين . مفترياً على الدين الإسلامى ، ورسوله – عليه الصلاة والسلام – .

وأرى قبل أن نخوض فى بحث المقال ، والرد عليه . أن نذكر ملاحظاتنا على ظروف المقال ، وملابساته . تلك الظروف والملابسات التى تتلخص فى الآتى :

أولاً : المجلة التى نشرت المقال اسمها « شتيرن » ويحمل نفس هذا الإسم عصابة صهيونية ، مشهورة من طراز عصابة الهاغانا وغيرها من العصابات الصهيونية الكثيرة ، العاملة فى فلسطين ضد العرب والمسلمين . فكاتب فى مجلة تحمل اسم عصابة صهيونية مشهورة . هل يمكن أن يكون منصفاً مع العرب والمسلمين ؟ إننى أترك الجواب لحرية القارئ ، ولا أقول لذكائه . لأن الجواب

ليس فى حاجة إلى ذكاء (١) .

ثانياً : **الكاتب باعترافه** لم يعش فى بلاد الشرق والعروبة والإسلام على سعتها وطولها وعرضها ، أكثر من سنتين . **فهل** تكفى هذه المدة القصيرة لدراسة أحوال العرب والمسلمين دينياً ، واجتماعياً وأخلاقياً دراسة كافية تخول للكاتب أن يكون عميقاً فى أبحاثه . دقيقاً فى أحكامه ؟ الجواب ؛ فى نظرى : لا .

ثالثاً : **الكاتب غير معروف** فى الأوساط العلمية العالمية ، وليس من المستشرقين الدارسين ، المعروفين بتخصصهم فى الدراسات العربية والإسلامية ، وليس له اسم معروف فى دراسة الأديان ، والتعمق فى أبحاثها ، وأسلوبه وأفكاره ، وتعليقاته : تدل على أنه رجل سطحى ، لا يزيد عن أنه مراسل مجلة فاشل ، ومبالغ ، وغير متعفف عن الكذب .

رابعاً : **من المقرر** الثابت المعروف لدى الجميع : أن الصهيونية والاستعمار متجاوبان ، ومتعاونان فى مجال عداوة العرب والمسلمين ، فالعرب والمسلمون إجمالاً اليوم فى حالة حرب بينهم من جانب وبين الصهيونية والاستعمار من جانب آخر . فالاستعمار لا يريد أن يرحل عن بلاد العرب والمسلمين ، وإذا رحل من الباب حاول الرجوع من النافذة ، والصهيونية ربيبة الاستعمار وصنيعته ، ورأس الحربة التى يسددها إلى صدور العرب والمسلمين ، فتستأسد باسمه وتعتدى على العرب لحسابه ، وما حرب السويس سنة ١٩٥٦ م وحرب يونية سنة ١٩٦٧ م ، وحرب أكتوبر ١٩٧٣ م — ومساندة الاستعمار فيها للصهيونية — عن أذهاننا ببعيدة . فما المانع أن يكون هذا المقال مظهراً من مظاهر المخططات الصهيونية الاستعمارية التى يقصد بها محاربة العرب والمسلمين ، بواسطة حملات التشهير بهم ، والتشنيع عليهم ، ووصمهم بوصمة التخلف ، والهمجية والوحشية لتشويه سمعتهم

---

(١) كلمة (شتبرن) معناها فى الأصل النجم ، وعصابة شتيرن منسوبة الى رئيسها المسمى بهذا الاسم وكان عضوا فى عصابة ارغون لكنه انشق عنها وكون عصابة مستقلة باسمه كانت تحترف السطو والاغتيال

على الصعيد العالمى ، وفى المجال الدولى . الأمر الذى كثيراً ما يتورط فى اعتقاده عن طريق السماع : كثير من الغربيين والأوربيين . فإذا ما درسوا ، أو بحثوا ، أو زاروا البلاد بأنفسهم فهموا أخيراً أنهم كانوا ضحايا حملات كاذبة مضللة .

وقد اعترف بذلك الجاسوس الصهيونى الألمانى أثناء محاكمته بعد إلقاء القبض عليه فى القاهرة . وقال : إنى رأيت شيئاً غير الذى سمعت .

خامساً : الكاتب غير معروف من الناحية الدينية أيضاً . هل هو من الذين ينتمون إلى دين ، أو من الذين لا دين لهم ؟ وإذا كان منتمياً إلى دين . **فهل** دينه المسيحية أم اليهودية ؟ أم دين آخر ؟ إن غموض شأنه من هذه الناحية : جعلنا حين نرد عليه : مدافعين أكثر من مهاجمين نعمد إلى بيان الحق ، ووضوحه فى حد ذاته ، ونقرر بالأدلة والبراهين : مبادىء الإسلام وعمل المسلمين ، وواقع العرب . بمقدار ما يظهر منه بطلان دعاوى الكاتب ، ومفترياته ، وجهله .

هذا إجمال لابد من أخذه فى الاعتبار حين نأخذ تفصيلا فى مناقشة هذا الكاتب والرد عليه ، وهذا الإجمال كان لابد منه ليأخذ القارئ فكرة إجمالية عن موضوع المقال وشخصية الكاتب ، حتى لاتباغته الدهشة عندما يقرأ ماتستعرض من مفتريات الكاتب وغرائبه التى صاغها فى أسلوب خيالى ، لعله اقتبسه وهو يمر ببلاد الشرق : من أسلوب الرواية المشهورة (ألف ليلة وليلة) .

* * *

وعنوان مقال الكاتب هو « الجنس الملعون » وكأن الكاتب عمد إلى هذا العنوان لإثارة الانتباه والتشويق ، وقد فاته أن يشير فى مقاله الطويل ، ولو إشارة عابرة إلى ما يقصده بهذا العنوان .

والذى فهمناه هو أنه يريد به : الجنس النسائى النصف الثانى لشقى الحياة الإنسانية ويريد به : أننا نحن العرب والمسلمين نطلق هذا العنوان الجائر الظالم

على المرأة وجنسها . فإنه يقول تحت هذا العنوان مباشرة « العالم الإسلامى نصف مليار من البشر ، أكثر من نصف هذا العدد ، لا زالوا يعيشون كالعبيد ، ألا وهم النساء ؛ إن المرأة محملة بالذنوب ، حضيضة الشأن ، نجسة ، عقلها أقل من عقل الرجل ، ولهذا تبقى طيلة حياتها تحت وصايته .

لذلك فإن الله لا يجبرها على الصلاة وزيارة المساجد : إنه يكفى أن تعبد الرجل الذى هو الصلة بينها وبين ربها ، إن دنس المرأة مُعدٍ ، وقابل للانتقال كوسخ الكلاب ، والخنازير ، ولا يسمح للرجل أن يلمسها ، فإذا اضطر إلى لمسها فعليه أن يتطهر ، ويغسل نفسه من قمة رأسه إلى أخمص قدميه ، وبعد نظافته من دناسة المرأة يحل له أن يصلى » ثم يقول « هذه ليست خرافات مفزعة كاذبة ، إنما أصور بخطوط عريضة طبيعة الحياة النفسية ، والأرض التى تعيش بها نساء العالم الإسلامى فيما بين مراكش والباكستان ، ومركز هذا العالم : هم العرب » ثم يقول « هذه الأفكار صيغت من علماء الكتاب المسلمين ، الذين يسمون بالعلماء ، وكما شرح آباء الكنيسة المسيحيون فى الماضى الإنجيل ، فكذلك تولى العلماء شرح القرآن ، وقد كانوا فى تشريعهم مجحفين فى حق المرأة ، مفضلين للرجل ، فجعلوا فضله ، ورفعة شأنه ، قانوناً إلهياً » انتهى :

هذا كلامه بالحرف الواحد ، وتلك ادعاءاته ، وافتراءاته ، ولسنا ندرى ، ولا المنجم يدرى من أى مصدر استقاها ؟ وعلى أى أساس كتبها ؟ من أى مكان ؟ من أى مرجع ؟ بأى طريق تكونت لديه هذه المعلومات ؟ .

إنه لو كان العرب والمسلمون يعيشون فى أعماق البحار ، أو فى سراديب تحت الأرض ، أو فى كهوف فى بطون الجبال ، أو فيما وراء سد يأجوج ومأجوج ، لما جاز أن يكتب عنهم ما كتب ، فكيف وهم يعيشون على وجه الأرض ، ويتبوأون منها أماكن مرموقة ، وبلاداً ذات حضارة ومدنية بهرت أنظار العالم جميعه ، واسترعت انتباه الناس جميعهم .

لو كان لهذا الكاتب شيء من الإلمام بتعاليم الإسلام ، ومبادئه ، وما جرى عليه العمل عند المسلمين ، على مدى التاريخ الإسلامى لعرف أن المرأة فى نظر الإسلام والمسلمين ، والعرب فى موضع الإعزاز ، والتقدير والإكرام ، وليست بحال من الأحوال جنساً ملعوناً ، أو نجسة كالكلاب والخنازير ، أو عابدة لزوجها من دون الله » .

إن للمرأة فى نظر الإسلام مكانة مرموقة فهى إما أن ينظر إليها من حيث هى أم ، أو من حيث هى زوجة ، أو من حيث هى ابنة ، أو من حيث هى أخت ، أو من حيث عدم تقيدها بحيثية من هذه الحيثيات ، وللمرأة فى كل حالة من هذه الحالات حقوق فى الإسلام ، وعنها فى كل حالة من هذه الحالات دراسة وهدى وبيان . عرف ذلك وأشاد به كثير من كتاب العالم شرقه وغربه ولكن جورديان جهل ذلك أو تجاهله . .

وما ضر الورود وما عليها إذا المزكوم لم يطعم شذاها

وقبل الشروع فى هذه الدراسة نقول :

إن عظمة الشيء فى حد ذاتها ، لا تكفى لأن يسالم الناس هذا الشيء ، ويعترفوا جميعاً بعظمته وكون الشيء حقاً فى حد ذاته ، لا يكفى لأن يؤمن الناس جميعاً به ، ويذعنوا له . ربما تكون عظمة الشيء سبباً فى حقد الناس عليه ، ومحاولتهم النيل منه ، وربما تكون جدارة الشيء وأفضليته سبباً من أسباب بغضه عند ذوى النفوس المريضة ، التى تميل بطبعها إلى الباطل ، وترى فى الحق قيداً لها عن الشهوات . كيف لا يكون ذلك ، والله تعالى يقول لخاتم رسله « وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين [1] » .

إن الإسلام ذلك الدين العظيم من يوم أن بزغ فجره والأعداء تتألب عليه ، وتأتمر ضده ، والخصوم يتناوشونه ، ولا يهادنونه ، بالسيف ، بالقلم ،

(١) يوسف ١٠٣

بالدس ، بالفتنة ، بكافة الأسلحة . من الداخل ينحرف عنه منحرفون ، ويدس فيه دساسون ، ومن الخارج يتهجم عليه متهجمون ، ويحاربه معتدون . على مدى تاريخه الطويل ، لا يكاد يمر عليه وقت إلا وهو يتعرض لهزات خطير أمرها كبير أثرها .

المرتدون فى عهد أبى بكر الصديق ، الفتنة الكبرى بمقتل عثمان ، وما تبعها من خلافات سياسية وعقائد مذهبية بين الأمويين والعباسيين ، والعلويين ، الزنادقة والملحدون والوضاعون والمغول والتتار ، والصليبيون والعثمانيون والاستعمار ، المستشرقون والمبشرون .

لقد ألقى الكل بثقله فى المعركة ، فأدى دوره العدوانى حتى استهلك طاقته التخريبية ، وألقى بجميع ما فى جعبته من سهام الباطل ، يريد أن ينال من الحق فى جلاله ، أو يشوه من عظمته وجماله . لكن الحق ظل دائماً هو الحق ، والإسلام ظل دائماً هو الإسلام ، مرفوع الهامة ، مشدود القامة ، موفور الكرامة ، كالطود الأشم ، يتلقى الطعنات الموجهة إليه ، وهو واسع الصدر باسم الثغر ، واثقاً من أن النصر فى النهاية له .

وإن كثيراً ممن بدأوه بالمهاجمة قد بهرهم ما فيه من جلال وجمال فآمنوا به وأيدوه ونصروه كالمغول والتتار وغيرهم وكثير من هؤلاء لم يرزقه الله الهداية للإيمان فأقام على عداوته ، لكنه لم يحرم حين احتك بالإسلام من الانتفاع بما فيه من هدى ونور ، اقتبسه ليسعد به فى دنياه غافلاً عن سعادته فى الدار الآخرة . كما كان عليه الأمر فى حضارة الغرب بعد عصر النهضة فإنها فى الأصل مقتبسة من حضارة الإسلام والعرب بإجماع المؤرخين .

ولم يحرم الإسلام من فضله هؤلاء ولا هؤلاء .

مثل النخيل عن الأحقاد مرتفع يُرمى بصخر، فيلقى خير أثمار

وذلك كله راجع إلى أن الطاقات الخلاقة التى فيها جدارة وفاعلية ، لابد من

أن تشق طريقها إلى الأمام دون توقف ، ولما كان الإسلام طاقة خلاقة ، طاقة كبرى من طاقات الحق والخير وقد أنزله الله ليشق طريقه فى الحياة لإسعاد البشرية فى الدنيا والآخرة ، فقد احتك بغيره ، واحتك غيره به . وكان لابد له من أعداء وخصوم .

إن الطاقات الخلاقة ذات إيجابية ، لا تعرف السلبية ، وذات حيوية متجددة تعطيها مزيداً من القدرة على النضال والمغالبة ، وهى لا تزداد على النضال والمغالبة إلا قوة وبروزاً ، فى حياتها ونضالها . وسيظل الإسلام فى مسيرة نضاله عزيز الجانب ، موفور الحيوية ، موصول الفاعلية ، رائداً خلاقاً ، له الغلبة والنصر « ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين (١) » ، « وجعل كلمة الذين كفروا السفلى ، وكلمة الله هى العليا ، والله عزيز حكيم (٢) » .

ولقد لهثت مؤخراً المدنية الغربية ، والحضارة الأوربية ، ولهث المستشرقون والمبشرون ، وكتاب الغرب المغموسة أقلامهم فى مداد الغيظ والحقد على الإسلام والمسلمين ، لهثوا وأدركهم الإعياء ، وانبهار الأنفاس ، وهم يصولون ويجولون فى ميدان محاربة الإسلام بالطعن والتشهير ، وقلب الحقائق ، وتزييف التاريخ . لكنهم بعد هذا النصب لم ينالوا من الإسلام شيئا . وكان الشأن فيهم كما قال الله سبحانه وتعالى فى أسلافهم « ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيراً (٣) » أو كما قال الشاعر الحكيم أبو تمام .

وإذا أراد الله نشر فضيلة طويت أتاح لها لسان حسود
لولا إشتعال النار فيما جاورت ما كان يعرف طيب عرف العود

وإن المقال الذى نتناول فى هذا الكتاب دراسته ، والرد عليه . ما هو

---

(١) المنافقون ٨

(٢) التوبة ٤٠

(٣) الأحزاب ٢٥

إلا صورة من صور التطاول على الإسلام ، ونبى الإسلام ، وبلاد الإسلام . مقال يدفع إليه الحقد المتأجج ، وعليه التعصب الأعمى ، والضغينة الحقيرة . وهو فى نهاية أمره ، وبعد دراسته ، والرد عليه . إلى زوال كأنه لم يكن . وصدق الله إذ يقول « ألم تر كيف ضرب الله مثلاً كلمة طيبة ، كشجرة طيبة . أصلها ثابت ، وفرعها فى السماء ، تؤتى أكلها كل حين بإذن ربها ، ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون . ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض مالها من قرار . يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا ، وفى الآخرة . ويضل الله الظالمين . ويفعل الله ما يشاء »[1] .

المؤلف

---

(١) ابراهيم ٢٤ – ٢٧

الفصل الأول

مكانة المرأة فى الإسلام

« إننا لا نجد عملاً أفاد النساء ، ورفع من أقدارهن .
أعظم مما أتى به النبى محمد ، فهن مدينات له بأمور
كثيرة »

« مسيو ريفيل »

نتناول فى هذا الفصل مكانة المرأة فى الإسلام من جهة كونها أماً ، أو زوجة ، أو بنتاً ، أو أختاً ، ومن جهة كونها عضواً فى المجتمع الإنسانى العام وينبوع الحياة فيه . .

المرأة الأم :

القرآن الكريم دستور الإسلام الخالد ، ما أوصى باحترام أحد ، وإكرامه ، كما أوصى باحترام الوالدين ، وإكرامهما : الوالد والوالدة ، الأب والأم ، لقد جعل الأمر بالإحسان إليهما تالياً فى الذكر والحديث للأمر بتوحيده ، وعبادته سبحانه وتعالى فقال « واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً ، وبالوالدين إحساناً [1] » وقال « وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه ، وبالوالدين إحساناً ، إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما ، فلا تقل لهما أف ، ولا تنهرهما ، وقل لهما قولاً كريماً ،

(١) النساء ٣٦

واخفض لهما جناح الذل من الرحمة ، وقل رب ارحمهما كما ربيانى صغيراً [١] » .

نهت هذه الكلمات الإلهية عن تأفف الابن من الأم مهما كلفته بشيء ونهته عن أن ينهرها أو يغضبها لسبب من الأسباب ، وأمرته أن يقول لها : قولاً كريماً لطيفاً ليّناً ، وأن يكون معها متذللاً ، رحيماً بها . وأن يدعو لها بالرحمة من الله ، لأنها ربته صغيراً ، ورحمته كثيراً ، أيام أن كان فى حاجة ماسة إلى رحمتها بعد رحمة الله .

وبين لنا الله فى موضع آخر فضل الأم ، وجهدها المشكور فى تربية ولدها فى حمله ووضعه ورضاعه ، وسائر ما تستلزمه رسالة الأمومة المقدسة من الإخلاص والتضحية النابعة من الأعماق عن طيب خاطر ، ورضاء نفس . فيقول تعالى « ووصينا الإنسان بوالديه إحساناً حملته أمه كرهاً . ووضعته كرهاً ، وحمله وفصاله ثلاثون شهراً [٢] » .

وأوجب الله إكرام الوالدين : الأب والأم حتى ولو كانا مشركين ، والولد مسلم . فقد أساءت والدة سعد بن أبى وقاص إليه لمّا أسلم وهى مشركة ، فعلم بذلك رسول الله ﷺ فأوصاه بحسن معاملتها وطاعتها إلاّ فى الشرك والكفر . ونزل قوله تعالى « ووصينا الإنسان بوالديه حملته أمه وهناً على وهن ، وفصاله فى عامين ، أن أشكر لى ولوالديك إلىّ المصير . وإن جاهداك على أن تشرك بى ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما فى الدنيا معروفاً ، واتبع سبيل من أناب إلىّ ثم إلىّ مرجعكم . فأنبئكم بما كنتم تعملون [٣] » .

والحديث النبوى الشريف يرفع الأم على الأب فى الإكرام والإحسان ثلاث

---

(١) الإسراء ٢٣

(٢) الأحقاف ١٥

(٣) لقمان ١٤ — ١٥

درجات . فقد جاء رجل إلى رسول الله ﷺ يقول له : « يا رسول الله ، من أحق بحسن صحابتي ؟ قال : أمك . قال : ثم من ؟ قال : أمك . قال : ثم من ؟ قال : أمك . . قال : ثم من ؟ قال : ثم أبوك [١] » والدرجات الثلاث كما قال علماء الإسلام : واحدة للحمل ، وواحدة للوضع ، وواحدة للرضاع .

هذه هى المرأة فى الإسلام إذا كانت أماً . « لا استعباد لها ، ولا استذلال ، ولا دنس ، بل توقير ، وتقديس لها من أولادها رجالاً كانوا أو نساء . وفى المأثور المشهور عند المسلمين : أن الجنة تحت أقدام الأمهات . بمعنى أن احترامهن ، والإحسان إليهن يوصِّل فاعله إلى دخول الجنة يوم القيامة » .

المرأة الزوجة [٢] :

أما إذا كانت المرأة زوجة فهى لا تزوج إلا بإذنها واستشارتها ورغبتها فيمن تتزوج فلا تكره على الزواج بمن لا تريد الزواج منه . ففى الحديث النبوى الشريف عن أبى هريرة « حدثهم أن النبى ﷺ قال : لا تنكح الأيم حتى تستأمر ، ولا تنكح البكر حتى تستأذن . قالوا يا رسول الله : وكيف إذنها ؟ قال : أن تسكت [٣] » وقد ثبت أن امرأة جاءت إلى الرسول ﷺ تقول : إن اباها زوجها رغماً عنها بمن لا تحب . فرد نكاحها . روى البخارى « عن خنساء بنت خِذَام الأنصارية أن أباها زوجها وهى ثيب فكرهت ذلك . فأتت رسول

---

(١) البخارى – كتاب الأدب – باب من أحق الناس بحسن الصحبة ، طبعة الشعب بمصر

(٢) المرأة المتزوجة كثيرا ما يعبر القرآن عنها بلفظ زوج لا بلفظ زوجة فى سورة البقرة والأعراف : قول الله لآدم « اسكن أنت وزوجك الجنة » وفى أول سورة النساء « يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة ، وخلق منها زوجها » وفى سورة الأحزاب « وإذ تقول للذى أنعم الله عليه ، وأنعمت عليه : أمسك عليك زوجك » لكن علماء اللغة فيما نقلوا وحققوا : أجازوا الحاق تاء التأنيث باللفظ فقالوا « زوجة » لسهولة التفرقة بين الزوج الرجل ، والزوجة المرأة ، وجرينا على هذا فى تعبيراتنا فى هذا البحث

(٣) البخارى كتاب النكاح – باب لا ينكح الأب وغيره البكر والثيب إلا برضاها

الله ﷺ فرد نكاحه (١) » .

وأوجب الإسلام على الرجل أن يدفع مهراً لمن يريد الزواج بها . فلا زواج بامرأة بدون مهر يدفع لها إعزازاً وإكراماً ، وإشعاراً بالرغبة والمحبة ، والتضحية فى سبيلها . فقد قال الرسول ﷺ لرجل يريد الزواج ولا شيء معه «التمس ولو خاتماً من حديد» وهذا الرجل نفسه لمّا لم يجد خاتماً من حديد قال له الرسول : «ماذا معك من القرآن ؟ قال : معى سورة كذا ، وسورة كذا ، وعدّدها . فقال : تقرؤهن عن ظهر قلبك ؟ قال : نعم . قال : اذهب . فقد ملكتكها بما معك من القرآن (٢) » .

وقال تعالى « فما استمتعتم به منهن فآتوهن أجورهن فريضة (٣) » وقال تعالى « وآتوا النساء صدقاتهن نحلة (٤) » أى مهورهن عطية . ووقف عمر بن الخطاب -رضى الله عنه- يخطب ذات مرة فنهى عن المغالاة فى المهور. فقالت امرأة : يا عمر . كيف تنهى عن ذلك . وقد قال الله « وآتيتم إحداهن قنطاراً ، فلا تأخذوا منه شيئاً . أتأخذونه بهتانا ، وإثماً مبيناً (٥) » ؟

وأوجب الإسلام : إشهار الزواج ، والإشهاد عليه فقال تعالى « وأشهدوا ذوى عدل منكم (٦) » ونهى عن زواج السر. ولم يمنع من الخطبة ، والمبادىء الأولى التى هى مقدمات الزواج فقال تعالى : « ولا جناح عليكم فيما عرضتم به من خطبة النساء ، أو أكننتم فى أنفسكم ، علم الله أنكم ستذكرونهن ولكن

---

(١) البخارى - باب إذا زوج ابنته وهى كارهة

(٢) البخارى - باب تزويج المعسر

(٣) النساء ٢٤

(٤) النساء ٤

(٥) النساء ٢٠

(٦) الطلاق ٢٠

لا تواعدوهن سراً ، إلا أن تقولوا قولاً معروفاً (١) » .

والهدف من ذلك كله هو : إعزاز المرأة ، وحسن تقديرها ، والمحافظة على الأعراض والأنساب التى لا يتكون مجتمع فاضل إلا بالمحافظة عليها ، ولم تتنزل شريعة سماوية قط إلا بالمحافظة عليها ، ولا توجد أسر نبيلة طاهرة الأعراق ، معروفة الأحساب والأنساب إلا بالمحافظة عليها .

وقد أوصى نبى الإسلام ﷺ باختيار الزوجة من البيئات الشريفة الصالحة المحافظة المؤمنة بحق الأنساب والأعراض. فعن أبى هريرة – رضى الله عنه – عن النبى ﷺ قال : « تنكح المرأة لأربع : لمالها ، ولحسبها ، وجمالها ، ولدينها . فاظفر بذات الدين تربت يداك (٢) » وروى عنه أنه قال « تخيروا لنطفكم فإن العرق دساس » يحذر من فساد الذرية ، بعامل وراثة الفساد عن الأم إذا كانت فاسدة . كما حذر من الانخداع بجمال الفاسدة فى النشأة والأخلاق . فقال فيما روى عنه « إياكم وخضراء الدمن . قالوا : وما خضراء الدمن يا رسول الله ؟ قال : المرأة الحسناء فى منابت السوء » يحذر من زواجها .

ومن مبادىء الإسلام : مراعاة الكفاءة بين الزوجين عند إرادة الزواج ، حتى لا تكون هناك فوارق كبيرة بين الزوجين ، فتفسد علاقة الزوجين بينهما مستقبلاً ، وهذا أمر تشهد به وقائع الحياة وتجاربها .

وإذا ما صارت المرأة زوجة بالفعل ، فقد صارت شريكة حياة زوجها ، لها عليه حقوق ، وله عليها حقوق كالشأن فى جميع مظاهر الحياة وواقعها . كل حق يقابله واجب ، وبتعاونهما واشتراكهما تتكون زوجية ديمقراطية تعاونية فاضلة ، لا خيانة فيها ، ولا غش ، ولا غدر ، بل ثقة متبادلة ، ومحبة تزيدها الأيام قوة وترسيخاً . بدافع الحرص على مستقبل الأسرة ، الخلية الأولى من

---

(١) البقرة ٢٣٥

(٢) البخارى – باب الأكفاء فى الدين

خلايا المجتمع ، واللبنة الأولى فى جدار المجتمع ، فالرجل راع فى أهله ، وهو مسئول عن رعيته ، والمرأة راعية فى بيت زوجها ، وهى مسئولة عنه . هكذا يقول نبى الإسلام ﷺ ، فالحياة بين الزوجين تكامل وتكافل . لا عبودية ، ولا استعباد ، ولا بغى ولا عدوان « كلكم راع ، وكلكم مسئول . فالإمام راع وهو مسئول ، والرجل راع على أهله وهو مسئول . والمرأة راعية على بيت زوجها ، وهى مسئولة . والعبد راع على مال سيده وهو مسئول . ألا فكلكم راع ، وكلكم مسئول (١) » .

وقد أوصى الإسلام الرجال بالنساء خيراً . فعن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال « من كان يؤمن بالله ، واليوم الآخر . فلا يؤذ جاره ، واستوصوا بالنساء خيراً ، فإنهن خلقن من ضلع أعوج ، وإن أعوج شىء فى الضلع أعلاه ، فإن ذهبت تقيمه كسرته ، وإن تركته لم يزل أعوج . فاستوصوا بالنساء خيراً (٢) » يريد ملاينة النساء عند إصلاحهن لأن استعمال العنف معهن قد يضر ولا ينفع « واللاتى تخافون نشوزهن فعظوهن . واهجروهن فى المضاجع واضربوهن (٣) » ثلاث درجات بعضها إثر بعض فإذا انصلحت المرأة فليس للرجل عليها استعلاء « فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلاً » وأمر الله الأزواج بحسن معاشرة الزوجات فقال تعالى « وعاشروهن بالمعروف ، فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئاً ، ويجعل الله فيه خيراً كثيراً (٤) » وهذا أمر للزوج بإكرام الزوجة ومعاشرتها باللطف والحسنى ، حتى ولو أغضبته فكرهها . فليصبر وليحلم وليتحكم فى عواطفه ، ولا يتسرع بطلاقها فربما يكون فيها — مستقبلاً — الخير الكثير ،

---

(١) البخارى – باب قوا أنفسكم وأهليكم نارا

(٢) البخارى – باب الوصاة بالنساء

(٣) سورة النساء آية ٣٤

(٤) النساء ١٩

بصلاح حالها ، وحسن مآلها بإنجاب الذرية الصالحة التى تحمل اسم الرجل فى حياته وبعد مماته . وصدق الله فى قوله « وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم ، وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم . والله يعلم وأنتم لا تعلمون [1] » .

– وإن حصل شقاق ونزاع بين الرجل والمرأة فليجتمع حكم من أهله ، وحكم من أهلها ، للنظر فى النزاع والحكم بينهما ، وإجراء الصلح والوفاق . فقال تعالى « وإن خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكماً من أهله ، وحكماً من أهلها إن يريدا إصلاحاً يوفق الله بينهما إن الله كان عليماً خبيراً [2] » وفى مثل هذا المعنى يقول تعالى فى موضع آخر « وإن امرأة خافت من بعلها نشوزاً ، أو إعراضاً فلا جناح عليهما أن يصلحا بينهما صلحاً ، والصلح خير ، وأحضرت الأنفس الشح ، وإن تحسنوا وتتقوا فإن الله كان بما تعملون خبيراً [3] » .

نعم إن أمكن الصلح بينهما فبها ونعمت ، وإن لم يمكن فالطلاق والفراق بإحسان واحترام كما قال تعالى « فأمسكوهن بمعروف ، أو سرحوهن بمعروف ، ولا تمسكوهن ضراراً لتعتدوا [4] » وفى آية أخرى « فأمسكوهن بمعروف ، أو فارقوهن بمعروف [5] » فالإسلام يشرع الطلاق إكراماً للمرأة إذ استحال الوفاق بينها وبين زوجها ولا يتركها مستذلة له . مع اعتبار الطلاق أمراً بغيضاً يقول ﷺ « إن أبغض الحلال إلى الله : الطلاق » فالإسلام لا يفتح باب الطلاق على مصراعيه فيكون فى ذلك فناء الأسر ، وتشتت العائلات والإضرار بالمرأة . وكذلك لا يمنع الطلاق منعاً باتاً ، فتحصل المعاشرة بين الزوجين على كره ومضض فيكون فى ذلك الحرج والإحراج . وإذا أبى الزوج الطلاق ، وتضررت

(١) البقرة ٢١٦

(٢) النساء ٣٥

(٣) النساء ١٣٨

(٤) البقرة ٢٣١

(٥) الطلاق ٢

الزوجة بذلك فلها أن تطلب فسخ الزواج أمام القاضى . ولها أن تختلع من الزوج بالخلع المعروف . ولها فى بعض المذاهب أن تشترط عند الزواج حريتها فى أن تطلق إذا أرادت . فكانت لذلك تعاليم الإسلام عملية واقعية موافقة للعقل والمنطق السليم لا تحابى أحداً ، على حساب أحد .

ومن عناية الإسلام بالمرأة والمحافظة على حقوقها ، وعدم إيذائها والإضرار بها : أنه حرم على الرجل ما كان يفعله الناس قبل الإسلام من عمليتى الظهار والإيلاء ، حيث كان يقول الزوج لزوجته : أنت علىّ كظهر أمى . أو يحلف ألا يقربها ، فتصير محرمة على نفسه . فلا هو مطلق طلاقاً صريحاً ، ولا هو معاشر معاشرة الأزواج فتظل المرأة كالمعلقة بين السماء والأرض . جاءت امرأة تشكو إلى رسول الله ﷺ أن زوجها ظاهر منها فأنزل الله قوله الكريم « قد سمع الله قول التى تجادلك فى زوجها وتشتكى إلى الله ، والله يسمع تحاوركما إن الله سميع بصير ، الذين يظاهرون منكم من نسائهم ماهن أمهاتهم ، إن أمهاتهم إلا اللائى ولدنهم . وإنهم ليقولون منكراً من القول وزوراً ، وإن الله لعفو غفور [1] » وقال تعالى فى إبطال عملية الإيلاء المضرة بالزوجة « للذين يؤلون من نسائهم تربص أربعة أشهر ، فإن فاءوا فإن الله غفور رحيم ، وإن عزموا الطلاق فإن الله سميع عليم [2] » وحرم الإسلام ما كان يفعله الناس بالمرأة فقد كانت تورث كالمتاع ، يرث القريب زوجة قريبه إذا مات عنها ، ويمنعها من الزواج بعده فقال تعالى « يا أيها الذين آمنوا لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرهاً ، ولا تعضلوهن لتذهبوا ببعض ما آتيتموهن إلا أن يأتين بفاحشة مبينة [3] » .

أما قوله تعالى « الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض ،

---

(١) أول المجادلة

(٢) البقرة ٢٢٦ – ٢٢٧

(٣) النساء ١٩

وبما أنفقوا من أموالهم فالصالحات قانتات حافظات للغيب بما حفظ الله ، واللاتى تخافون نشوزهن فعظوهن واهجروهن فى المضاجع واضربوهن . فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلاً . إن الله كان علياً كبيراً (١) » فهذا ليس إهداراً لكرامة المرأة ، أو استعباداً لها ، أو استذلالاً . ولكن من حيث إنها والرجل يكونان أسرة ذات كيان : زوج وزوجة ، وأولاد . وللأسرة مصالحها ومشاكلها ، وتخطيطها وآلامها وآمالها . فلابد لهذا المظهر كله من رئيس يرجع إليه فى الأمور الهامة يؤخذ برأيه ، ويقضى على الخلافات . ويرجح أمراً على أمر . لأنه لا يصلح أمر هو فوضى فى أية ظاهرة من ظواهر الحياة كبرت أو صغرت . فلما كان الرجل هو العنصر الأقوى فى هذه الظاهرة ، وفى العادة يكون أكبر سناً من الزوجة والأولاد ، وأكثر تجربة وإحاطة بأحوال المجتمع ، وله من تكوينه الجسمى ، والعصبى ، ورجولته وقوة مقاومته وشكيمته ، ما يجعله لا محالة : العنصر الأقوى . فإن الإسلام قد اعتبره هو القوّام على الأسرة ، والمسئول عنها ، الراعى لها . مع اعتبار مسئولية الزوجة أيضاً ، بل ومسئولية الأولاد : مسئولية أساسها الحب والتعاون ، والحرص على الصالح العام للأسرة كلها ، زوجاً وزوجة وأبناء . فللمرأة حرية ، ومسئولية فى ظل من رعاية زوجها ، وللأولاد مسئولية وحرية فى ظل من رعاية الوالدين ، وللزوج حرية ومسئولية فى ظل من رعاية الوطن ، والكل فى ظل من رعاية الله . وما أحسن ما قاله الأديب المنفلوطى « تعجبنى الحرية فى ثلاث : حرية المرأة فى ظل زوجها ، وحرية الرجل فى ظل الوطن ، وحرية الوطن فى ظل الله » .

وهذه هى الدرجة التى يقول الله فيها « ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف ، وللرجال عليهن درجة (٢) » وهذا مع مراعاة ما تختص به المرأة دون الرجل من

---

(١) النساء ٣٤

(٢) البقرة ٢٢٨

تعب الحيض والحمل والوضع والرضاع ، والسهر على راحة الوليد ، والقيام بمراسيم الأمومة التي هى أقدس واجبات المرأة على الإطلاق . فلو حملناها مع ذلك : قوامة الأسرة ، ورئاستها لكان ظلماً لها ، إن الفوارق الطبيعية الجسمية بين الرجل والمرأة يجب الاعتراف بها وبتوابعها وآثارها وإن إنكارها لمكابرة ، وإنكار للواقع ، وإفساد لحياة المرأة والرجل على السواء ، ومسخ وتشويه . إن المرأة بإرادتها المساواة المطلقة مع الرجل ، تريد أن تكون (رجلة) وإذا صارت المرأة (رجلة) فماذا يصير الرجل ؟ إنه لابد من الاختلافات والتجنيس الذى هو سرّ الحياة .

إن هذه الدرجة ، وهذه القوامة للرجل على المرأة ليست فى الإسلام فقط ، ولكنها جاءت كذلك فى التوراة . « وقال – الله – للمرأة : تكثيرا أكثر أتعاب حبلك . بالوجع تلدين أولادا . وإلى رجلك يكون إشتياقك ، وهو يسود عليك » (تكوين ٣ : ١٦) وفى الإنجيل يقول بُولُس فى رسالته إلى أهل كُولُوسِّى « أيتها النساء اخضعن لرجالكن كما يليق فى الرب ، أيها الرجال أحبوا نساءكم ولا تكونوا قساة عليهن » (كولوسى ٣ : ١٨ – ١٩)

وهذه الدرجة والقوامة أوصى الإسلام بحسن استعمالها كمظلة واقية للأسرة من التردى والتسيب ، وفى الوقت الذى أوصى الإسلام فيه الرجال بالنساء خيرا ، أوصى النساء بطاعة الرجال والقيام بحقوقهم وحقوق الأسرة ، وإلا فإنهن يعرضن أنفسهن لعملية إصلاح وتهذيب وترشيد بالوعظ أو الهجر فى الفراش أو الضرب غير المبرح ، وفى أضيق الحدود بحيث لو أطعن الرجال ، واستقمن فليس للرجال عليهن سبيل ، غير سبيل المودة « واللاتى تخافون نشوزهن فعظوهن واهجروهن فى المضاجع ، واضربوهن . فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا ، إن الله كان عليا كبيرا [١] » فمن النساء من يكفى فى إصلاحهن ، وتقويم اعوجاجهن

(١) النساء ٣٤

مجرد الوعظ والنصيحة ، ومنهن من يكفى فى إصلاحهن ، وتقويم اعوجاجهن مجرد هجرهن فى الفراش ، ومن النساء من يحتجن فى إصلاحهن وتقويم اعوجاجهن إلى شيء من العنف والخشونة التى تشعر المرأة بقوة للرجل وبأسه وسيطرته على مقتضى الفطرة والطبيعة التى يجب أن يحس بها ، ويرضى بها كل من الرجل والمرأة . ولله درّ الكاتبة الإنجليزية التى تقول « إن المرأة » السويّة : لا يرضيها من الرجل أن تكون مالكة أمره ، والمهيمنة عليه ، ولا تتعلق بالرجل الذى تديره كيف تشاء ، وهى تحتقر من تراه ألعوبة فى يدها ، لأنها بطبعها تريد الاستناد إلى شيء صلب ومتين » .

إن التطاول إلى هدم هذه الفوارق بين المرأة والرجل مكابرة محضة ، ولعنة أعلنها نبى الإسلام حين قال « لعن الله المتشبهين بالنساء من الرجال ، والمتشبهات بالرجال من النساء » وقد ثبت فى صحيح البخارى أن الرسول ﷺ نهى عن دخول بعض المتشبهين بالنساء ، مجالس النساء ، وقال للنساء ذات مرة « لا يدخل هذا عليكن » يريد متشبها بالنساء [١] كأنه يريد أن يقول : مهما يتشبه بالنساء فلن يكون من النساء ، وكذلك مهما تشبهت المرأة بالرجل فلن تكون من الرجال . فليبق كلّ على وضعه ، ولتكن الفوارق محترمة ، بل مقدسة . فلم يخلق أحد الجنسين ليكون منافسا للآخر ، أو مساويا . بل متكاملا معه ، وذلك أنفع للجنسين وللحضارة الإنسانية والوجود الإنسانى .

إن نبى الإسلام ﷺ لعن الرجل يلبس لبسة المرأة ، والمرأة تلبس لبسة الرجل . وقال فيما روى عنه « أربعة لعنوا فى الدنيا والآخرة وأمنت الملائكة : رجل جعله الله ذكرا فأنث نفسه ، وتشبه بالنساء . وامرأة جعلها الله أنثى فتذكرت وتشبهت بالرجال . والذى يضل الأعمى . ورجل حصور ، ولم يجعل الله حصورا ! إلا يحيى بن زكريا » وروى عنه كذلك « ثلاثة لا يدخلون الجنة ،

(١) البخارى — باب ما ينهى من دخول المتشبهين بالنساء على المرأة

الديوث ، والرجلة من النساء ، ومدمن الخمر . وقالوا : ما الديوث يا رسول الله ؟ قال : الذى لا يبالى من دخل على أهله . قالوا : فما الرجلة من النساء ؟ قال : التى تتشبه بالرجال »

وبقاء كل جنس على ما هو عليه من الأخلاق والفوارق بينه ، وبين الجنس الآخر ضرورى لا نتظام دقة الحياة الإنسانية ، وتباعد المدى بين هذه الفوارق أدعى لاحترام كل جنس للآخر ، واشتياقه إليه ، والتحامه به طلبا لما يفتقده هو فى خاصة نفسه . أما إذا تلاشت هذه الفوارق ، وصار الجنسان شيئا واحداً فى المظهر والمخبر فقد فسدت حياة البشر واهتزت واضطربت . واضطر الجنسان اللذان انمحت بينهما الفروق أن يبحثا عن جنس آخر مضاد لهما وهيهات أن يجداه إلا بالرجوع إلى التجنيس الأول ، الفطرى والطبيعى الذى جبلت عليه البشرية بيد من خلقها وأبدعها وأراد لها أن تكون كذلك « الذى أحسن كل شيء خلقه ، وبدأ خلق الإنسان من طين » (١) « صنع الله الذى أتقن كل شيء » (٢)

مشيئة الخالق البارى وصنعته

وحكمة الله فوق الشك والتهم

كيف تكون المرأة فى نظر الإسلام ، وواقع المسلمين : مستعبدة تعيش عيشة العبيد والإماء ، وتعتبر نجسة كالكلاب والخنازير كما يقول « جورديان » ؟ مع أن المسلمين يسمعون فى دستورهم كتاب ربهم وهو يقرأ صباح مساء : أن الله جعلها رحمة ومودة ، وسكنا تسكن إليه النفس ، وأنها من آيات الله ونعمائه على الرجال يقول تعالى « ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها ، وجعل

---

(١) السجدة ٧

(٢) النمل ٨٨

بينكم مودة ورحمة إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون » (١) ويبين تعالى أن كلا من الزوج والزوجة : لباس وستر للآخر فيقول : « هن لباس لكم ، وأنتم لبس لهن » (٢) واعتبر نبى الإسلام فيما روى عنه « خير متاع الدنيا المرأة الصالحة . إن نظرت إليها سرتك ، وإن غبت عنها حفظتك فى مالك وعرضك » وقال فيما روى عنه « حبب (٣) إلىّ من دنياكم ثلاث : الطيب . والنساء . وجعلت قرة عينى فى الصلاة » ورأى سائق إبل يضرب جملا يحمل نساء فيجرى الجمل فينزعجن فيقول له : « رفقا بالقوارير » يخاف عليهن كما يخاف الإنسان على زجاجات أن تنكسر . وكان يسابق زوجته عائشة فى الجرى فتسبقه تارة ، ويسبقهاأخرى ، ويقول لها « هذه بتلك » وكانت تقف بجواره تنظر إلى الأحباش يلعبون بالنبال والسهام . ودخل أبو بكر يوم عيد عليه فى بيته فوجده ﷺ نائما وعائشة زوج الرسول ، وبنت أبى بكر معها جاريتان تغنيان بغناء بعاث فوكز أبو بكر ابنته عائشة يقول لها « أمزمارة الشيطان فى بيت رسول الله ؟ » فلما انتبه الرسول من نومه . قال : « دعهما فإن اليوم يوم عيد » وثبت أن زوجة عمر بن الخطاب راجعته فى أمر من الأمور ، فغضب فقالت له « أتغضب ونساء رسول الله يراجعنه ، ولا يغضب » ؟ ونبى الإسلام يقول لعبد الله بن عمرو بن العاص « يا عبد الله . ألم أخبر أنك تصوم النهار ، وتقوم الليل ؟ قلت : بلى يا رسول الله . قال : فلا تفعل . صم وأفطر . وقم ونم . فإن لجسدك عليك حقا . وإن لعينك عليك حقا . وإن لزوجك عليك حقا » وعن عائشة – رضى الله عنها – قالت « كنت ألعب بالبنات عند النبى ﷺ . وكان لى صواحب يلعبن معى . فكان رسول الله

---

(١) الروم ٢١

(٢) البقرة ١٨٧

(٣) المقصود بالحب هنا : هو الميل الطبيعى ولا عيب فيه . بل العيب فى الرهبنة لأنها تخريب فى البشرية . أو هو العطف والشفقة وإكرام العنصر النسائى أحد شقى الحياة . ووصايا النبى بالنساء خيرا مشهورة

ﷺ إذا دخل يتقمعن منه . فيُسر بهن إلىّ فيلعبن معى »

إن الزوجة في الإسلام ، وواقع العرب والمسلمين موضع إعزاز واحترام . على هذا جرى العمل من المسلمين والعرب فى القديم والحديث ، وكل ما يخالف ذلك فهو إما جهل ، أو انحراف ، أو ندرة وشذوذ . وكل ذلك لاعتبار به ، ولا حرمة له .

إن الزوجة لكثرة إحاطتها بالتقديس والإعزاز عند العرب والمسلمين أكثروا من الكنية عنها ، لا يذكرونها باسمها . إلا عند الضرورة القصوى ، فيكنى عنها بالأهل ، ويكنى عنها بأم الأولاد ، أو أم فلان ، أو أم فلانة ، ويكنى عنها بالحرم المصون ، وبشريكة الحياة . وما شاكل ذلك . والعرب قبل الإسلام كانوا يبدأون قصائدهم الشعرية بمخاطبة المرأة والتوجه إليها بالتوقير والتعظيم ، واستمداد النصيحة وطلب الإعانة على مكارم الأخلاق ، وماجد الأعمال ، وباسم العلقة المقدسة بينها وبين زوجها ترث منه فى الشريعة الإسلامية ربع تركته إذا لم يكن له أولاد . وثمنها إذا كان له أولاد . وقد يكون ثمنها هذا ، أو ربعها أكبر من نصيب رجل مشترك معها فى الميراث من هذه التركة ، كما أن له باسم هذه العلقة المقدسة أيضا أن يرثها إذا توفيت فله نصف التركة إذا لم يكن لها فرع وارث ، والربع إذا كان لها فرع وارث . وقد يكون نصيبه هذا أقل من امرأة وارثة معه فى هذه التركة . قال تعالى « ولكم نصف ما ترك أزواجكم إن لم يكن لهن ولد . فإن كان لهن ولد فلكم الربع مما تركن من بعد وصية يوصين بها أو دين ، ولهن الربع مما تركتم إن لم يكن لكم ولد فإن كان لكم ولد فلهن الثمن مما تركتم من بعد وصية توصون بها أو دين » (١) هذا بينما لا تزال المرأة فى كثير من بلاد العالم ، حتى المتحضرة منها محرومة من الإرث ، والملك المستقل ، والممارسة المالية الحرة ، لقد كان « مسيو ريفيل » على الحق حين قال : « إننا

(١) النساء ١٢

لا نجد عملا أفاد النساء ، ورفع من قدرهن ، أعظم مما أتى به النبى محمد . فهنّ مدينات له بأمور كثيرة » .

المرأة البنت :

هذا إذا كانت المرأة زوجة ، وهذه هى حقوقها ومكانتها ، فإذا كانت بنتا ، فإن الله العليم بخفايا النفوس التى خلقها ، قد وبخ الذين يحزنون نفسياً ، وتغتم نفوسهم إذا ولدت لهم بنت ، بينما يفرحون أشد الفرح إذا ولد لهم ، ولد ذكر ، وكثيرا ما يكون ذلك حتى من المرأة نفسها ، لا من الرجل وحده ، الجميع كثيرا ما يحزنون إذا بشروا بأنثى تولد ، فنهى الله تعالى عن ذلك ، وبين أنه شىء سيىّء وعمل غير نبيل ، وحكم غير حكيم فقال تعالى « وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسودا وهو كظيم ، يتوارى من القوم من سوء ما بشر به ، أيمسكه على هون ، أم يدسه فى التراب ألا ساء ما يحكمون » (١) .

وأوجب الإسلام للبنت ما للولد من حسن الرعاية ، والتربية ، والتنشئة الصالحة ، وجميع الحقوق والواجبات ، وحذر من تفضيل الولد عليها فى الهبة والمعاملة المالية ، والتصرف لصالح الولد فى المواريث الشرعية التى حددها الله . وللرسول الكريم نبى الإسلام ﷺ أحاديث كثيرة يبين فيها أن من رزقه الله من البنات شيئا ، واحدة أو اثنتين أو أكثر فأدبهن ، وأحسن تربيتهن فله الجنة . وبين فى بعض هذه الأحاديث أن الرحمة بهن . والعطف عليهن يدخل الرجل الجنة فقال ﷺ « من يلى من هذه البنات شيئا فأحسن إليهن ، كن له سترا من النار » (٢) وفى البخارى « خرج علينا النبى ﷺ ، وأمامه بنت أبى العاص على عاتقه فصلى ، فإذا ركع وضع وفى رواية : وضعها – وإذا رفع رفعها » (٣) .

---

(١) النحل ٥٨ – ٥٩

(٢) البخارى – باب رحمة الولد وتقبيلة

(٣) البخارى – باب رحمة الولد وتقبيلة

المرأة الأخت :

أما إذا كانت المرأة أختا . فقد أوجب الإسلام على الأخ إكرام أخته ، ورعايتها ، وصلة رحمه فيها وأوجب لها معه الميراث عن أبيها وأمها . إذا توفيا ، أو توفى أحدهما . فميراثها على النصف من ميراث أخيها ، لأن الغرض أنه رجل سيدفع المهر إذا تزوج ، وينفق على زوجته وتكون له أسرة يكون مسئولا عنها ماليا ، واجتماعيا ، بينما هى ستأخذ مهرا إذا تزوجت ، وتكون فى كنف زوج مكلف بالإنفاق عليها ورعايتها .

المرأة عامَّة :

لقد حرر الإسلام المرأة ، ورد إليها كرامتها واعتبارها . لقد كانت على عهد اليونان والرومان أمة مملوكة فى بيت وليها وأبيها ، ثم فى بيت زوجها ، ولم يكن من حقها أن تتملك شيئا ، وكانوا يعتبرونها مخلوقا غريبا ، لا يتمتع بالنفس الإنسانية التى يتمتع بها الرجل ، وعقدت من أجل ذلك مؤتمرات تأتمر فيها الرجال بالنساء ولا يزال بعض النساء فى أوربا لا يتمتعن بأموالهن كما يشأن إن تزوجن . بل إن العروس تدفع لخطيبها مالا كأنها تتذلل إليه ، وتغريه ، أو تدفع ثمنه وتشتريه . فأين هذا مما جاء به الإسلام من جعل المرأة مع الرجل على قدم المساواة فى الحقوق والواجبات المعنوية والمالية إلاَّ فى أشياء قليلة ، يقتضيها الفرق الواضح المسلم بين طبيعة الرجل وطبيعة المرأة . فالمرأة أمام التكاليف الشرعية ، والواجبات الدينية شقيقة الرجل ، تصلى وتصوم وتزكى وتحج ، وتبيع وتشترى وتخرج للحروب والدفاع عن الوطن ، وتعمل فى أى عمل تشاء من زراعة أو صناعة أو تعليم أو أية وظيفة أخرى ، والله تعالى يقول فى القرآن الكريم « أنى لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى ، بعضكم من بعض ، فالذين

هاجروا وأخرجوا من ديارهم وأوذوا فى سبيلى ، وقاتلوا وقتلوا لأكفرن عنهم سيآتهم ، ولأدخلنهم جنات تجرى من تحتها الأنهار ، ثوابا من عند الله ، والله عنده حسن الثواب (١) » وفى الحديث الشريف « قال رسول الله ﷺ : ثلاثة لهم أجران : رجل من أهل الكتاب آمن بنبيه ، وآمن بمحمد ﷺ . والعبد المملوك إذا أدى حق الله وحق مواليه ، ورجل كانت عنده أمة فأدبها فأحسن تأديبها ، وعلمها فأحسن تعليمها ، ثم أعتقها فتزوجها فله أجران » (٢) وفى البخارى « أن رسول الله ﷺ خرج ومعه بلال فظن أنه لم يُسمِع — النساء — فوعظهن وأمرهن بالصدقة فجعلت المرأة تلقى القرط والخاتم ، وبلال يأخذ فى طرف ثوبه » (٣) وقد نبغ فى بلاد الإسلام والعروبة فى القديم والحديث عالمات فقيهات ، وأديبات لامعات وشاعرات مشهورات وطلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة كما جاء فى حديث نبى الإسلام بذكر المسلمة مع المسلم وكان النساء على عهد رسول الله ﷺ يحضرن الغزوات ويقتلن الأعداء ، ويملأن الجرار بالماء ، ويداوين الجرحى ، ويقمن بحراسة المتاع والرحال ، وكانت أم أيمن تقف فى غزوة أحد بجوار رسول الله ، وتنادى فى الناس بالثبات والشجاعة ، وكانت أم عمارة الأنصارية فى نفس هذه الغزوة قد خرجت أول النهار ، ومعها سقاء فيه ماء ، تدور به على المسلمين المجاهدين ، تسقى منهم من يريد ، فلما انهزم المسلمون ألقت سقاءها ، واستلت سيفا وقامت تباشر القتال ، تدافع عن رسول الله ﷺ بالسيف وترمى عنه بالقوس ، حتى أصيبت بالجراح .

وفى كتاب البخارى فى أحاديث رسول الله ﷺ الصحيحة ، باب خاص بعنوان « خروج النساء مع الغزاة فى سبيل الله » وفى كتاب صحيح مسلم الخاص

(١) آل عمران ١٩٥

(٢) البخارى باب تعليم الرجل أمته وأهله

(٣) البخارى باب عظة الإمام النساء وتعليمهن

بسيرة رسول الله ﷺ ، وأحاديثه باب خاص بغزوات النساء مع الرجال ، ذكر فيه أن رسول الله ﷺ كان يغزو ومعه أم سلمة زوجته ، وكانت تحمل الخنجر لتقتل به الأعداء ، وأنه خرج نساء الأنصار فى الغزوات يسقين الماء ، ويداوين الجرحى ، ويأخذن من الغنيمة ، وقال عبد الله بن عمر ، رأيت أم سليم وعائشة مشمرتين ، يرى خدم سوقهما تحملان جرار الماء إلى أفواه الرجال . ومكثت عائشة بعد وفاة الرسول ﷺ قريبا من الخمسين سنة تعلم الناس ، وتفتى فى الفقه والحديث والتفسير ، يرجع الرجال إلى سؤالها ، والأخذ عنها فى كثير من أصول الشريعة وفروعها . وخرجت ذات مرة لقتال على بن أبى طالب فى واقعة سُميت بواقعة الجمل ، نسبة إلى الجمل الذى كانت تركبه ، وهى فى قلب المعركة داخل هودجها ، وهى التى قالت « نعم النساء : نساء الأنصار . لم يمنعهن الحياء أن يسألن عن أمور دينهن »

ولقد راجعت عمر بن الخطاب امرأة ، وهو يخطب أثناء خلافته ، وعظمته ومجده ، وعارضته فى رأيه فرجع إلى الصواب وهو يقول « أخطأ عمر ، وأصابت امرأة » وقالت أم سليم لرسول الله ﷺ « إن الله لا يستحى من الحق . هل على المرأة غسل إذا هى احتملت ؟ قال : نعم إذا رأت الماء » وجاء فى صحاح الأحاديث ، وأحاديث الصحاح أن النساء على عهد رسول الله ﷺ قلن له : يا رسول الله غلبنا عليك الرجال – أى استأثروا بك – فاجعل لنا يوما من نفسك ، فوعدهن فلقيهن فوعظهن ، وأمرهن بالصدقة ، ونهاهن عن الشتم ، واللعن ، وكفران العشير – أى الزوج المعاشر – وأمرهن بالصبر عند فقدان الولد ، وأوصاهن بوصايا تعتبر دساتير خالدة ، تكفل للمرأة سعادة فى بيتها . وفى المجتمع الذى تعيش فيه ، سعادة مبعثها التمتع بحسن الخلق ، وحسن السيرة والشعور بالثقة المتبادلة ، والإحساس بالعزة والكرامة ، ونظافة السلوك . وقد جاءت هذه المعانى صراحة فى قوله تعالى « يا أيها النبى إذا جاءك المؤمنات

يبايعنك على أن لا يشركن بالله شيئا ، ولا يسرقن ولا يزنين ، ولا يقتلن أولادهن ، ولا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهن ، وأرجلهن ، ولا يعصينك فى معروف ، فبايعهن واستغفر لهن الله ، إن الله غفور رحيم » (١)

وكان للمرأة فى الهجرة من مكة إلى يثرب دور بارز ، حتى إن الله أنزل فى شأن المهاجرات قوله تعالى « يا أيها الذين آمنوا إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات ، فامتحنوهن ، الله أعلم بإيمانهن ، فإن علمتموهن مؤمنات ، فلا ترجعوهن إلى الكفار ، لا هن حل لهم ، ولا هم يحلون لهن ، وآتوهم ما أنفقوا ولا جناح عليكم أن تنكحوهن إذا آتيتموهن أجورهن ، ولا تمسكوا بعصم الكوافر ، واسألوا ما أنفقتم وليسئلوا ما أنفقوا . ذلكم حكم الله يحكم بينكم . والله عليم حكيم » (٢) .

وجاء النساء ذات مرة إلى رسول الله ﷺ يقلن له : يا رسول الله لماذا نرى الله يذكر الرجال فى القرآن كثيرا ، ولا يذكر النساء؟ فنزل قوله تعالى : « ولا تتمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض ، للرجال نصيب مما اكتسبوا ، وللنساء نصيب مما اكتسبن » (٣) وقوله تعالى « فاستجاب لهم ربهم أنى لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى بعضكم من بعض » (٤) وتعززت هذه المعانى عن المساواة بين المرأة والرجل فى إعطاء كل ذى حق حقه ، بمثل قوله تعالى « ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى ، وهو مؤمن ، فأولئك يدخلون الجنة ، ولا يظلمون نقيرا » (٥) وقوله تعالى فى آية أخرى «ومن عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن ، فأولئك يدخلون الجنة ، يرزقون فيها بغير

---

(١) الممتحنة ١٢

(٢) الممتحنة ١٠

(٣) النساء ٣٢

(٤) آل عمران ١٩٥

(٥) النساء ١٢٤

حساب »[1] وقوله تعالى « إن المسلمين والمسلمات ، والمؤمنين والمؤمنات ، والقانتين والقانتات ، والصادقين والصادقات ، والصابرين والصابرات ، والخاشعين والخاشعات ، والمتصدقين والمتصدقات ، والصائمين والصائمات ، والحافظين فروجهم والحافظات ، والذاكرين الله كثيرا والذاكرات ، أعد الله لهم مغفرة وأجرا عظيما »[2] .

كم تجمع وتساوى هذه النصوص الكريمة ، والآيات البينات الحكيمة بين الرجل والمرأة ، وتلفها بحزام واحد ، هو حزام الأخوة والتكافؤ ، والمساواة أمام حساب الله وجزائه ، مما كان سببا فى القولة الإسلامية المشهورة « النساء شقائق الرجال » .

لقد كان العمل ولا يزال فى صلاة الجماعة بالمساجد ، أن يترتب المصلون خلف الإمام : الرجال فالصبيان ، ثم النساء . لا ترد المرأة عن بيت الله ، ولا يوصد فى وجهها باب رحمة الله ، ولا تعتبر فى نظر الإسلام نجسة ولا شيطانة .

نعم إن المرأة قبل الإسلام كانت مهينة متهمة بأنها رجس وشيطانة ، حتى كانت فى بعض المجتمعات تدفن حية عند ميلادها ، وهى الموءودة التى قال القرآن فيها « وإذا الموءودة سُئلت . بأى ذنب قتلت ؟ »[3] وكان الفكر المسيحى يعتبرها رأس الشر والفساد والخطيئة استنادا على أن إبليس قد امتنع عليه آدم لما أراد إغواءه بالأكل من الشجرة ، فانصرف عنه إلى حواء فاستمعت له وللحية ، فأغوياها وحرضاها ، وامتثلت فأكلت من الشجرة التى حرمها الله عليهما فى الجنة . ولم تزل بآدم تحرضه وتغويه حتى أكل مثلها ، فانكشفت عورتهما وارتكبا

---

(١) غافر ٤٠

(٢) الأحزاب ٣٥

(٣) التكوير ٨ ، ٩

الخطيئة ، وحواء هى السبب . فى التوراة قال الله لآدم « هل أكلت من الشجرة التى أوصيتك أن لا تأكل منها ؟ فقال آدم : المرأة التى جعلتها معى هى أعطتنى من الشجرة فأكلتُ ، فقال الرب الإله للمرأة : ما هِذا الذى فعلت ؟ . . . الخ » (تكوين ٣ : ١١ – ١٣)

وعلى ذلك الزعم كان لابد من تعميد الكنيسة للمواليد على إثر ميلادهم لإزالة أثر هذا الإثم المتوارث المهلك لأرواحهم ، والذى يحول بينهم وبين ملكوت الله . يقول حبيب جرجس عميد الكلية الإكليريكية بمصر سابقا « والمعمودية ضرورية جدا للخلاص ، وبدونها لا يخلص أحد . لأن السيد المسيح قال « من آمن واعتمد خلص ، ومن لم يؤمن يُدن » (مرقس ١٦ : ٦) وقال أيضا « إن كان أحد لا يولد من الماء والروح لايقدر أن يدخل ملكوت الله » (يوحنا ٣ : ٥) [١] .

هذا بينما يعتبر الفكر الإسلامى آدم وحواء على قدم المساواة أمام مسئولية الآكل من الشجرة لظاهر قوله تعالى « فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سوءاتهما ، وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة ، وناداهما ربهما : ألم أنهكما عن تلكما الشجرة . وأقل لكما إن الشيطان لكما عدو مبين ؟ قالا : ربنا ظلمنا أنفسنا . وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين » [٢] وإذا كان الابتعاد عن المرأة بالرهبانية يعتبر كمالا إنسانيا فى نظر المسيحية . فإنه فى نظر الإسلام يعتبر نقصا وعيبا . لأنه لا رهبانية فى الإسلام . ويعتبر كذلك فى الأنجيل نفسه ولذلك عبر القرآن عن رهبانيتهم بأنها مبتدعة ليست من تعاليم موسى ولا عيسى إلزاما فقال تعالى « ورهبانية ابتدعوها » [٣] يقول متى على لسان المسيح عليه السلام « قال له

---

(١) ص ٧٦ خلاصة الأصول الإيمانية فى معتقدات الكنيسة القبطية الأرثوذكسية

(٢) الأعراف ٢٢ – ٢٣

(٣) الحديد ٢٧

تلاميذه إن كان هكذا أمر الرجل مع المرأة فلا يوافق أن يتزوج . فقال لهم : ليس الجميع يقبلون هذا الكلام . بل الذين أعطى لهم . لأنه يوجد خِصْيَان ولدوا هكذا من بطون أمهاتهم .ويوجد خصيان خصاهم الناس . ويوجد خصيان خصوْا أنفسهم لأجل ملكوت السموات [1] من استطاع أن يَقْبل فليقبَل » (متى ١٩ : ١٠ – ١٢) فأنت ترى أن الرهبانية عندهم لا إلزام عليها « من استطاع أن يقبل فليقبل »

وكثيرا ما يحث الإسلام على الزواج ، والاستمتاع بالمرأة ، والأنس إليها ، ويعتبر ذلك من آيات الله كما سبق بيانه وبيان ما فيه من المودة والرحمة ولما سمع الرسول أن أناسا يقومون الليل ويصومون الدهر ويعتزلون النساء قال أما والله أنى لأتقاكم وأخشاكم لله ولكنى أصوم وأفطر وأصلى وأرقد وأتزوج النساء فمن رغب عن سنتى فليس منى » .

ومن عناية القرآن بالمرأة أن فيه سورة طويلة تسمى سورة النساء تحتوى على مائة وستة وسبعين آية فيها أحكام النساء ، وحقوقهن ، وواجباتهن ، وكثير مما يتعلق بهن وفى القرآن سورة الطلاق ، وتسمى سورة النساء الصغرى لأن آياتها أقل بكثير من سورة النساء الكبرى وفى القرآن سورة تسمى سورة المجادلة نزلت على إثر مجادلة امرأة لرسول الله تشكو زوجها ، الذى ظاهر منها ، ولها منه أطفال إن ضمهم إليه ضاعوا ، وإن ضمتهم إليها جاعوا « قد سمع الله قول التى تجادلك فى زوجها ، وتشتكى إلى الله ، والله يسمع تحاوركما ، إن الله سميع بصير » وهذه المرأة عاشت إلى خلافة عمر ، ونادته ذات مرة بالطريق فوقف يستمع لها ،

(١) ملكوت السموات ، أو ملكوت الله بمعنى واحد هو مجئ نبى الإسلام بمجده وسلطانه ، والتعبير اقتبسه المسيح من سفر دانيال الإصحاح السابع الآية الثالثة عشرة وما بعدها ، ويحث أتباعه على الاجتهاد والصبر فى الدعوة اليه وتعريف الناس به .

فاستكثر الناس منه ذلك ، فقال لهم : هذه هى التى استمع الله لها من فوق سبع سمواته . أفلا يقف عمر ليسمع لها ؟

وإن نعيم الجنة الذى وعد الله به عباده المتقين ، لم يخل منه ذكر المرأة بجوار الرجل وذلك فى القرآن ، وشريعته « وبشر الذين آمنوا ، وعملوا الصالحات ، أن لهن جنات تجرى من تحتها الأنهار . كلما رزقوا منها من ثمرة رزقا . قالوا : هذا الذى رزقنا من قبل ، وأتوا به متشابها . ولهم فيها أزواج مطهرة . وهم فيها خالدون »[1] واعتباره المرأة نعيما ، ونعمة وأنسا للرجل ، ليست رجسا ولا شيطانة ، لا يتنافى اقتران الرجل بها فى الجنة ، مع ما هو فيه من القرب إلى الله والتمتع برضوانه . فلا المتعة بالمرأة تحول بين الرجل وبين رضوان الله ولا الرجل يحول بين المرأة وبين مرضاة الله .

المرأة ينبوع الحياة تشارك فى صنعها :

لقد رأينا الله تبارك وتعالى كثيرا ما يذكر فى محكم كتابه – الذى أنزله علينا هدى وبيانا – يذكر الزوجية والذكورة والأنوثة ، مبينا تلازمهما وتداخلهما ، واندماجهما ، وتفجر الحياة من نبعهما معا . لا يكتمل أحدهما إلا بالآخر . ولا يتم وجوده وتفاعله فى الحياة إلا به . وهذا هو منطق المساواة ، وإشعار كل عنصر باحتياجه للآخر ، وتقديره له . فقال تعالى « يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى ، وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم . إن الله عليم خبير »[2] وقال سبحانه وتعالى « هو الذى خلقكم من نفس واحدة ، وجعل منها زوجها ليسكن إليها فلما تغشاها حملت حملا خفيفا فمرت به . فلما

---

(١) البقرة ٢٥

(٢) الحجرات ١٣

أثقلت دعوا الله ربهما . لئن آتيتنا صالحا لنكونن من الشاكرين » (١) وقال سبحانه « يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة ، وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء واتقوا الله الذى تساءلون به . والأرحام . إن الله كان عليكم رقيبا »(٢) ويقول سبحانه « والله جعل لكم من أنفسكم أزواجا ، وجعل لكم من أزواجكم بنين وحفدة » (٣) .

نعم إنه لا رجل إلا من امرأة ، ولا امرأة إلا من رجل ، ولما أحست امرأة عربية إعراض زوجها عنها بسبب أنها وضعت بنتا له سمتها « الزلفاء » قالت بالفطرة والسليقة :

ما لأبى الزلفاء لا يأتينا بظل فى البيت الذى يلينا

يغضب أن لا نلد البنينا وإنما نأخذ ما يعطينا

ليست شئون الخلق فى أيدينا

كما جاء أيضا قوله تعالى « لله ملك السموات والأرض ، يخلق ما يشاء ، يهب لمن يشاء إناثا ويهب لمن يشاء الذكور . أو يزوجهم ذكرانا وإناثا ، ويجعل من يشاء عقيما إنه عليم قدير » (٤) من منذ فجر الخليقة والمرأة تشارك فى صنع الحياة ، والقيام بأدوارها البطولية والبناءة مع الرجل جنبا إلى جنب ، والقصة فى القرآن تعتبر سجلا حافلا ، ببيان هذه الحقيقة ، وكشفها لأنظار الباحثين . فإن من الظواهر البارزة فى قصص القرآن : أن المرأة تحتل فيه حيزا كبيرا . حيث قامت فيه بأدوار بارزة يتكون منها هيكل القصة . وتبرز بصورة واضحة دور المرأة فى صنع الحياة وأحداث المجتمع . فلمريم أم عيسى مكانتها المرموقة فى القصة

---

(١) الأعراف، ١٨٩

(٢) أول النساء

(٣) النحل ٧٢

(٤) الشورى ٤٩ ، ٥٠

حيث جاء قصصها بإطناب فى سورة آل عمران ، ميلادها ، ونذر أمها امرأة عمران مافى بطنها لخدمة « بيت المقدس » (هيكل سليمان) كما يقول تعالى « إذا قالت امرأة عمران : رب إنى نذرت لك مافى بطنى محررا ، فتقبل منى إنك أنت السميع العليم . فلما وضعتها قالت : رب إنى وضعتها أنثى . والله أعلم بما وضعت ، وليس الذكر كالأنثى ، وإنى سميتها مريم ، وإنى أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم . فتقبلها ربها بقبول حسن ، وأنبتها نباتا حسنا ، وكفلها زكريا . كلما دخل عليها زكريا المحراب ، وجد عندها رزقاً . قال : يا مريم أنى لك هذا ؟ قالت : هو من عند الله . إن الله يرزق من يشاء بغير حساب » (١) .

وميلادها عيسى مع حوارها لقومها دفاعاً عن شرفها مذكور بإطناب فى سورة مريم حيث يقول تعالى «واذكر فى الكتاب مريم إذا انتبذت من أهلها مكاناً شرقياً ، فاتخذت من دونهم حجاباً فأرسلنا إليها روحنا. فتمثل لها بشراً سويا . قالت : إنى أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقيا . قال : إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاما زكيا . قالت : أنى يكون لى غلام ، ولم يمسسنى بشر ، ولم أك بغيا ؟ قال : كذلك . قال ربك هو على هيّن . ولنجعله آية للناس ورحمة منا . وكان أمراً مقضياً . فحملته فانتبذت به مكانا قصيا . فأجاءها المخاض إلى جذع النخلة . قالت : ياليتنى مت قبل هذا ، وكنت نسيا منسيا . فناداها من تحتها ألاّ تحزنى قد جعل ربك تحتك سريا ، وهزى إليك بجزع النخلة ، تساقط عليك رطبا جنيا . فكلى واشربى وقرى عينا ، فإما ترين من البشر أحدا . فقولى : إنى نذرت للرحمن صوما . فلن أكلم اليوم إنسيا فأتت به قومها تحمله . قالوا : يا مريم لقد جئت شيئا فريا . يا أخت هرون ما كان أبوك امرأ سوء . وما كانت أمك بغيا . فأشارت إليه . قالوا : كيف نكلم من كان فى المهد صبيا ؟ قال : إنى

---

(١) آل عمران ٣٥ - ٣٧

عبد الله . آتانى الكتاب ، وجعلنى نبيا ، وجعلنى مباركا أينما كنت ، وأوصانى بالصلاة والزكاة ما دمت حيا . وَبَرّا بوالدتى ، ولم يجعلنى جبارا شقيا . والسلام علىّ يوم ولدت . ويوم أموت ، ويوم أبعث حيا » [1] .

ولأم موسى وأخته وامرأة فرعون فى ظروف ميلاده ورضاعته وإلقائه فى التابوت ثم فى اليم . . دورا بارزا فى القصص القرآنى فى سورتى طه ، والقصص . وقد جاء فى « طه » « إذ أوحينا إلى أمك ما يوحى ، أن اقذفيه فى التابوت ، فاقذفيه فى اليم ، فليلقه اليم بالساحل . يأخذه عدو لى ، وعدو له ، وألقيت عليك محبة منى ، ولتصنع على عينى . إذ تمشى أختك فتقول : هل أدلكم على من يكفله ؟ فرجعناك إلى أمك ، كى تقر عينها ولا تحزن » [2] وجاء فى سورة القصص « وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه ، فإذا خفت عليه فألقيه فى اليم . ولا تخافى ولا تحزنى إنا رادوه إليك ، وجاعلوه من المرسلين . فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوا وحزنا . إن فرعون وهامان وجنودهما كانوا خاطئين . وقالت امرأة فرعون : قرة عين لى . ولك . لا تقتلوه . عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا وهم لا يشعرون . وأصبح فؤاد أم موسى فارغا إن كادت لتبدى به لولا أن ربطنا على قلبها لتكون من المؤمنين . وقالت لأخته قصيه ، فبصرت به عن جنب وهم لا يشعرون . وحرمنا عليه المراضع من قبل . فقالت : هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم ، وهم له ناصحون ؟ فرددناه إلى أمه كى تقر عينها ولا تحزن ، ولتعلم أن وعد الله حق . ولكن أكثرهم لا يعلمون » [3] .

ولزوج موسى وأختها دور كبير فى القصص القرآنى وتصنيع حياة موسى وجهاده على طريق رسالته . فقد جاء فى سورة القصص عن موسى قوله تعالى

---

(١) مريم ١٦ – ٣٣

(٢) طه ٣٨ – ٤٠

(٣) القصص ٧ – ١٣

« ولما توجه تلقاء مدين قال : عسى ربى أن يهديني سواء السبيل . ولما ورد ماء مدين ، وجد عليه أمة من الناس يسقون . ووجد من دونهم امرأتين تزودان . قال : ما خطبكما ؟ قالتا : لا نسقى حتى يصدر الرعاء وأبونا شيخ كبير ، فسقى لهما ثم تولى إلى الظل فقال : رب إنى لما أنزلت إلىّ من خير فقير . فجاءته إحداهما تمشى على استحياء ، قالت : إن أبى يدعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنا . فلما جاءه وقص عليه القصص . قال : لا تخف نجوت من القوم الظالمين . قالت إحداهما : يا أبت استأجره . إن خير من استأجرت القوى الأمين . قال : إنى أريد أن أنكحك إحدى ابنتى هاتين على أن تأجرنى ثمانى حجج فإن أتممت عشرا فمن عندك . وما أريد أن أشق عليك ستجدنى إن شاء من الصالحين ، قال ذلك بينى ، وبينك . أيما الأجلين قضيت فلا عدوان علىّ والله على ما نقول وكيل » (١) .

ولامرأة إبراهيم ذكر عريض فى قصته فى سورة هود . حيث يقول تعالى عنه « وامرأته قائمة فضحكت فبشرناها بإسحق . . ومن وراء إسحق يعقوب . قالت : ياويلتى أألد . وأنا عجوز . وهذا بعلى شيخا . إن هذا لشىء عجيب ؟ قالوا : أتعجبين من أمر الله رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت . إنه حميد مجيد » (٢) وفى سورة الذاريات « فراغ إلى أهله فجاء بعجل سمين ، فقربه إليهم . قال : ألا تأكلون ؟ فأوجس منهم خيفة ، قالوا : لا تخف . وبشروه بغلام عليم . فأقبلت امرأته فى صرة . فصكت وجهها . وقالت : عجوز عقيم . قالوا : كذلك . قال ربك إنه هو الحكيم العليم » (٣) .

وامرأة لوط ورد ذكرها فى قصته على اعتبار أنها كانت من معوقات الدعوة

---

(١) القصص ٢٢ – ٢٨

(٢) هود ٧١ – ٧٣

(٣) الذاريات ٢٦ – ٣٠

وخائنة لزوجها فى رسالته . فلما جاء الهلاك للكافرين قالت له الملائكة كما جاء فى سورة هود « إنا رسل ربك لن يصلوا إليك . فأسر بأهلك بقطع من الليل ، ولا يلتفت منكم أحد ، إلا امرأتك إنه مصيبها ما أصابهم . إن موعدهم الصبح . أليس الصبح بقريب ؟ » (١) وفى سورة الشعراء « فنجيناه وأهله أجمعين إلا عجوزا فى الغابرين » (٢) وفى سورة العنكبوت « إنا منجوك وأهلك إلا امرأتك كانت من الغابرين » (٣) وفى سورة النمل « فأنجيناه وأهله إلا امرأته قدرناها من الغابرين » (٤) وفى سورة الحجر « إلا آل لوط إنا لمنجوهم أجمعين ، إلا امرأته قدرنا إنها لمن الغابرين » (٥) وضرب بها وبامرأة نوح المثل فى قوله تعالى فى سورة التحريم « ضرب الله مثلا للذين كفروا امرأة نوح ، وامرأة لوط كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين ، فخانتاهما ، فلم يغنيا عنهما من الله شيئا ، وقيل : ادخلا النار مع الداخلين » (٦) وفى مقابلتهما ضرب مثل آخر بامرأة صالحة هى امرأة فرعون حيث يقول تعالى فى سورة التحريم « وضرب الله مثلا للذين آمنوا امرأة فرعون إذ قالت : رب ابن لى عندك بيتا فى الجنة ، ونجنى من فرعون وعمله ، ونجنى من القوم الظالمين » (٧) وملكة سبأ تحتل حيزا كبيرا فى قصة سليمان فى سورة النمل لما قال له الهدهد « أحطت بما لم تحط به . وجئتك من سبأ بنبأ يقين . إنى وجدت امرأة تملكهم ، وأوتيت من كل شىء ولها عرش عظيم . وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله ، وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل فهم لا يهتدون . ألا يسجدوا لله . الذى يخرج الخبء فى السموات والأرض . ويعلم ما تخفون وما تعلنون ؟ الله لا إله إلا هو رب

---

(١) هود ٨١
(٢) الشعراء ١٧٠ — ١٧١
(٣) العنكبوت ٣٣
(٤) النمل ٥٧
(٥) الحجر ٥٩ — ٦٠
(٦) التحريم ١٠
(٧) التحريم ١١

العرش العظيم . قال سننظر . أصدقت أم كنت من الكاذبين ؟ اذهب بكتابى هذا . فألقه إليهم ، ثم تول عنهم فانظر ماذا يرجعون ؟ قالت : يا أيها الملأ : إنى ألقى إلىّ كتاب كريم . إنه من سليمان . وإنه بسم الله الرحمن الرحيم ألا تعلوا علىّ وأتونى مسلمين . قالت يا أيها الملأ أفتونى فى أمرى ما كنت قاطعة أمرا حتى تشهدون . قالوا : نحن أولو قوة وأولو بأس شديد . والأمر إليك ، فانظرى ماذا تأمرين ؟ قالت : إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها ، وجعلوا أعزة أهلها : أذلة . وكذلك يفعلون . وإنى مرسلة إليهم بهدية . فناظرة بم يرجع المرسلون ؟ فلما جاء سليمان . قال : أتمدونن بمال ؟ فما آتانى الله خير مما آتاكم . بل أنتم بهديتكم تفرحون . ارجع إليهم فلنأتينهم بجنود لا قبل لهم بها . ولنخرجنهم منها أذلة وهم صاغرون قال يا أيها الملأ أيكم يأتينى بعرشها . قبل أن يأتونى مسلمين ؟ قال عِفريت من الجن أنا آتيك به . قبل أن تقوم من مقامك . وإنى عليه لقوى أمين . قال الذى عنده علم من الكتاب : أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك . فلما رآه مستقرا عنده . قال : هذا من فضل ربى . ليبلونى أأشكر أم أكفر ؟ ومن شكر فإنما يشكر لنفسه . ومن كفر فإن ربى غنى كريم قال : نكروا لها عرشها . ننظر : أتهتدى أم تكون من الذين لا يهتدون ؟ فلما جاءت قيل : أهكذا عرشك ؟ قالت : كأنه هو . وأوتينا العلم من قبلها . وكنا مسلمين . وصدها ما كانت تعبد من دون الله . إنها كانت من قوم كافرين . قيل لها : ادخلى الصرح ، فلما رأته حسبته لجة ، وكشفت عن ساقيها . قال : إنه صرح ممرد من قوارير . قالت : رب إنى ظلمت نفسى وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين »(1) .

وتحتل المرأة فى قصة يوسف حيزا كبيرا من أول قوله تعالى « وراودته التى هو فى بيتها عن نفسه » إلى قوله تعالى فى نفس القصة والموضوع « وقال الملك ائتونى

(1) النمل ٢٢ - ٤٤

به فلما جاءه الرسول . قال : ارجع إلى ربك فاسأله ما بال النسوة اللاتى قطعن أيديهن إن ربى بكيدهن عليم . قال : ما خطبكن . إذ راودتن يوسف عن نفسه . قلن : حاش لله . ما علمنا عليه من سوء . قالت امرأة العزيز : الآن حصحص الحق ، أنا راودته عن نفسه . وإنه لمن الصادقين . ذلك ليعلم أنى لم أخنه بالغيب . وأن الله لا يهدى كيد الخائنين » وقبل قوله « وراودته التى هو فى بيتها عن نفسه » قوله تعالى عن يوسف « وقال الذى اشتراه من مصر لامرأته : أكرمى مثواه ، عسى أن ينفعنا ، أو نتخذه ولدا »[١] .

وحواء زوج آدم تحتل حيزا كبيرا من قصة آدم لأول سكناه الجنة تشترك معه فى المعصية والتوبة والإخراج من الجنة ، والتنبيه عليهما بما سوف ينزله الله إليهما من هدى وذكر . جاء ذلك فى السور : البقرة ، والأعراف ، وطه . بعبارات مختلفة ، والمعنى واحد « وإذ قلنا للملائكة : اسجدوا لآدم ، فسجدوا إلا إبليس أبى . فقلنا : يا آدم إن هذا عدو لك ولزوجك ، فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى ، إن لك ألا تجوع فيها ولا تعرى . وأنك لاتظمأ فيها ، ولا تضحى . فوسوس إليه الشيطان . قال : يا آدم . هل أدلك على شجرة الخلد ، وملك لا يبلى . فأكلا منها . فبدت لهما سوءاتهما ، وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة ، وعصى آدم ربه فغوى . ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى . قال اهبطا منها جميعا . بعضكم لبعض عدو . فإما يأتينكم منى هدى ، فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى ، ومن أعرض عن ذكرى . فإن له معيشة ضنكا . ونحشره يوم القيامة أعمى »[٢] .

---

(١) يوسف ٢٠ – ٥٢

(٢) طه ١١٦ – ١٢٤

الإسلام يصون عرض المرأة لصالح المجتمع

لقد كان مظاهر إعزاز الإسلام والمسلمين والعرب للمرأة : أن القرآن الكريم ذمّ ولعن وهدد بالعذاب من يهاجمها ، ويتهمها فى عرضها ، ويخدش حياءها ، ويسيء إلى سمعتها وكرامتها ، ويرميها بأنها زنت أو زلت . من غير دليل عنده ، ولا بينة ، فقال تعالى « إن الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات ، لعنوا فى الدنيا والآخرة ، ولهم عذاب عظيم ، يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم ، وأرجلهم بما كانوا يعملون ، يومئذ يوفيهم الله دينهم الحق ، ويعلمون أن الله هو الحق المبين [1] » وحكم على من يفعل ذلك أن يقام عليه عقاب وحدّ فى الدنيا ، ليكون عبرة لغيره ، بأن يجلد ثمانين جلدة . فقال تعالى « والذين يرمون المحصنات ، ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة ، ولا تقبلوا لهم شهادة أبدا ، وأولئك هم الفاسقون ، إلا الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا فإن الله غفور رحيم [2] » أما من يعتدى على عرضها بالزنا بها فعلاً ، فله عقوبة الجلد مائة جلدة . إن لم يسبق له زواج ، والرجم حتى الموت إن كان قد سبق له زواج . وحكمها فى ذلك مثل حكمه تماما ، إن كان الزنا برضاها قال تعالى : « الزانية والزانى فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة ، ولا تأخذكم بهما رأفة فى دين الله . إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ، وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين [3] »

(١) النور ٢٣ – ٢٥

(٢) النور ٤ – ٥

(٣) النور ٢

وفى البخارى « أن رجلا من أسلم أتى رسول الله ﷺ فحدثه أنه قد زنى ، فشهد على نفسه أربع شهادات ، فأمر به رسول الله ﷺ ، فرجم ، وكان قد أحصن[1] » وهذه الجريمة لا تثبت إلا بأربعة شهداء . وذلك كله مما يوفر للمرأة حماية عرضها ، وصيانة شرفها وكرامتها ، حتى تعيش مرفوعة الرأس معززة فى الوسط الذى تعيش فيه ، إذا كان من الأوساط ، التى لا يزال فيها للأعراض ، والأنساب والشرف : اعتبار أكثر من أى شئ آخر . أما الأوساط التى تحللت من الشرف والأعراض والأنساب ، وتخلت عن ذلك كله ، وانطلقت كالحيوانات تفاخر بالتهتك ، والتبذل ، والتحلل من قيود الفضيلة . فهى أحط وأدون من أن تخاطب أو تكلف بهذه القيم الرفيعة ، والمعايير المثالية . التى شهد بعظمتها وخيريتها للفرد والمجتمع ، وطالب بالعودة إليها كعلاج سريع وحاسم ، هؤلاء الذين اندفعوا فى طريق التحلل والإباحية إلى آخر مداه . فرجعوا فى نهاية الشوط يتلمسون العلاج والإصلاح فى تعاليم الإسلام التى كانوا يتطاولون عليها ويسمونها رجعية .

جاء فى كتاب « الإسلام يتحدى » لمؤلفه : وحيد الدين خان : ما يلى : —

« إن الإسلام لا ينظر إلى المرأة والرجل نظرة واحدة . فهو يحرم العلاقات الحرة بينهما وقد أخذ العلماء عند بدء العصر العلمى يسخرون من هذه القوانين ، وأطلقوا عليها ، « مخلفات العصر الجاهلى » وقالوا بشدة : إن الرجل والمرأة متساويان ، ويرثان النسل الإنسانى بطريقة متساوية ، ولسوف تكون جريمة كبرى لو أقمنا العقبات فى طريق علاقتهما الحرة . وقد أنتجت هذه الفكرة مجتمعا جديدا فى الغرب . بيد أن التجارب الطويلة المريرة التى مرت بها الإنسانية بعد هذه الإباحة الجنسية هى أقسى ما عاناه البشر فقد ثبت بعد هذه التجارب أن المرأة والرجل لا يتساويان فطريا ولا طبيعيا وأى مجتمع يقوم على أساس مساواتهما

(١) البخارى — باب رجم المحصن

سوف يسبب خرابا ودمارا عظيمين للحضارة البشرية .

(ا) إن أول حقيقة فى هذا الأمر : هى أن الرجل والمرأة يختلفان كل الاختلاف فى نوعى كفاءاتهما الطبيعية ، واعتبارهما متساويين . إنما هو مخالفة كبرى لقوانين الطبيعة فى حد ذاتها . كتب الدكتور « الكسيس كيريل » الحائز على جائزة نوبل للعلم ، وهو يبين الفارق العضوى بين الرجل والمرأة – يقول :

« إن الأمور التى تفرق بين الرجل والمرأة لا تتحدد الأشكال الخاصة بأعضائها الجنسية والرحم والحمل ، وهى لا تتحدد أيضا فى اختلاف طرق تعليمهما . بل إن هذه الفوارق هى ذات طبيعة أساسية من اختلاف نوع الأنسجة فى جسم كليهما . كما أن « المرأة » تختلف عن « المرء » كليا . فى المادة الكيماوية التى تفرز من مبيض الرحم داخل جسمها ، والذين ينادون بمساواة الجنس اللطيف بالرجل يجهلون هذه الفوارق الأساسية . فيدعون أنه لابد أن يكون لهما نوع واحد من التعاليم والمسئوليات والوظائف ولكن المرأة فى الواقع تختلف عن الرجل كل الاختلاف فكل خلية من جسمها تحمل طابعا أنثويا . وهكذا تكون أعضاؤها المختلفة بل وأكثر من ذلك هذه هى حال نظامها العصبى .

إن قوانين وظائف الأعضاء محدودة . ومنضبطة . كقوانين الفلك . حيث لا يملك إحداث أدنى تغيير فيها لمجرد الأمنيات البشرية . وعلينا أن نسلم بها كما هى دون أن نسعى إلى ما هو غير طبيعى . وعلى النساء أن يقمن بتنمية مواهبهن الفطرية . وأن يبتعدن عن تقليد الرجال[1] »

ولوصدقت التجارب العملية نتائج هذه الفوارق الطبيعية . فقد فشلت المرأة فى أن تحرز أية مساواة مع الرجل فى أى ميدان . حتى إن الرجل يتقدم المرأة فى الميادين التى كانت تعتبر حكرا على المرأة فى الماضى . ومن ذلك أن المرأة فشلت فى المساواة مع الرجل فى حقل السينما . وليس الرجل هو الذى يدير اليوم كل ما

(١) Man the unknown, P. 93.

هو متعلق بالسينما . ومع ذلك فهو يتقاضى أجرا أكثر من المرأة فممثل كبير ، يتقاضى اليوم ستة ملايين روبية [١] فى السنة . على حين لا يزيد دخل أعظم ممثلة هندية . على أربعة ملايين روبية .

وليس هذا هو كل ما فى الأمر . فإننا لو أنكرنا القوانين الطبيعية ، والضوابط الفلكية وبدأنا نعمل على عكسها فسوف نكسر رءوسنا بأيدينا ، وهكذا جلب النظام الذى صاغه الإنسان – متجاهلا الحيثيات الفارقة بين الجنسين – صنوفا من الأمراض والجرائم إلى داخل المجتمع . إن شباب هذا المجتمع الجديد يشكو أنواعا من الأمراض الجنسية والخلقية ، والنفسية ، فضلا عن العصمة التى أهدرها المجتمع ، نتيجة هذا الاختلاط المروع .

ومن الظواهر التى تتكرر مرارا أمام أطباء هذا المجتمع أن تدخل فتاة غرفة الطبيب وهى تشكو من الصداع وقلة النوم . وتمضى بعض الوقت تتحدث عن هذه الآلام ؛ ثم لا تلبث أن تتكلم عن شاب التقت به صدفة منذ مدة . . وحينئذ يشعر الطبيب أنها تتعثر وتتلعثم فى كلامها فيقول لها :

« Well, then he asked you to his Flat, what did you say ? »

حسنا : ثم دعاك إلى شقته . فماذا قلت له ؟

وتقول الفتاة فى دهشة :

« كيف عرفت ذلك ، لقد كنت أريد أن أقول لك ذلك حالا » ومن الممكن معرفة كل ما ستقول الفتاة للطبيب بعد هذا الحديث . وهذا هو الذى دفع علماء الغرب إلى الشعور بخيبة الأمل فانتهوا إلى أن الحفاظ على العفة والعصمة « كلام فارغ » فى ظل مجتمع العلاقات الحرة . وقد قال طبيب غربى :

« من الممكن أن يصل الرجل والمرأة إلى نقطة ، يستحيل عندها التحكم فى الأعصاب والإحساس بالعواقب »

(١) عملة هندية كانت تساوى عشرة منها جنيهاً مصرياً (عند كتابة هذا الكتاب)

وقد بدأت حملة شديدة ضد هذه الظواهر فى صورة المقالات والكتب وبدأ بعض علماء الغرب يشعرون بالكارثة ، التى تهدد حضارتها . ولكنهم ، رغم ذلك كله ، غير قادرين على فهم جذور الموقف . .

ولقد نشرت الطبيبة المعروفة « ماريون هيليارد » مقالا عنيفا ضد الاختلاط الحر فقالت : « إننى لا أستطيع أن أسلم ، كطبيبة ، بأن العلاقات الطاهرة ممكنة بين رجل وامرأة ، ينفردان برضاهما وقتا طويلا »

ولكن الدكتورة « هيليارد » تستطرد قائلة :

« ولست على هذه الدرجة من الغباء ، حتى أنصح الشبان والفتيات أن يمتنعوا عن التقبيل . ولكن أكثرية الأمهات لا تخبرن أولادهن أن القبلة لا تبرد العواطف ، وإنما تلهبها (١) »

وتسلم الدكتورة « هيليارد » بهذا القول ، بالقانون الإلهى الذى يحرم هذه الظواهر حتى لا يصل الإنسان إلى حافة الجرائم الجنسية القبيحة ، ولكن الطبيبة لا تعرف كيف تحرم هذه الظاهرة التى تنتهى الى الأعمال الشيطانية لا محالة ؟

(ب) لقد أباح مشرع الإسلام « تعدد الزوجات » وأثيرت ضجة كبرى ضد هذا التشريع ، وأطلق عليه – هو الآخر – أنه « تذكار العصر الجاهلى » ولكن جاءت التجارب العملية لتثبت أنه كان تشريعا مناسبا للطبيعة الإنسانية لأن سدّ باب تعدد الزوجات إنما هو فتح لعشرات الأبواب الفاجرة ، غير الشرعية .

وسوف أشير هنا الى النشرة الإحصائية التى نشرتها هيئة الأمم المتحدة فى عام ١٩٥٩ م لقد أثبتت هذه النشرة بالأرقام والإحصائيات : أن العالم يواجه الآن مشكلة « الحرام أكثر من الحلال » .more out than in فى شأن المواليد . وجاء فى هذه الإحصائية أن نسبة الأطفال غير الشرعيين قد ارتفعت الى ستين فى المائة . وأما فى بعض البلاد ، وعلى سبيل المثال « بناما » فقد جاوزت هذه النسبة

(١) مجلة « ريدرز دايجست » عدد ديسمبر عام ١٩٥٧

الى الخمسة والسبعين فى المائة ، أى أن ثلاثة عن طريق الحرام من كل أربعة مواليد وأرفع نسبة لهؤلاء الأطفال غير الشرعيين موجودة فى أمريكا اللاتينية وتثبت هذه النشرة أيضاً : أن نسبة الأطفال غير الشرعيين تصل إلى « العدم » فى البلدان الإسلامية وتقول النشرة : أن نسبة هؤلاء الأطفال أقل من واحد فى المائة فى جمهورية مصر العربية مع أنها أكثر البلاد الإسلامية تأثرا بالحضارة الغربية .

فما الأسباب التى تحمى الدول الإسلامية من هذه البلية ؟

يقول محرر هذه النشرة الإحصائية : إن البلدان الإسلامية محفوظة من هذا الوباء لأنها تتبع نظام « تعدد الزوجات (١) »

لقد استطاع هذا القانون الإلهى الحكيم أن يحمى بلادنا الإسلامية من كارثة محققة فى هذا العصر.

فقد أكدت تجارب الإنسانية أن القانون الإلهى القديم هو الذى كان مبنيا على الحق والرحمة للإنسانية (٢) » انتهى .

ومن يقلب صحفات جريدة الأهرام فى ٢٥ / ٧ / ١٩٧٦ م يجد فيها عنواناً بندى له جبين الشرف والفضيلة هذا نصه :

« الصحة العالمية تدرس الإجهاض بين المراهقات » أما ما تحت العنوان فهو أخزى وأفضح حيث يقول « شهدت جنيف فى الأسبوع الماضى اجتماعا هاما تحت رعاية مصلحة الصحة العالمية لبحث ظاهرة خطيرة تهدد المجتمع والقيم ، وهى تزايد انتشار حالات الحمل والإجهاض بين الفتيات المراهقات (يا للهول) وقد أجمع عدد كبير من الأطباء وعلماء الاجتماع والنفس لبحث تلك المشكلة ، ويرى الخبراء أن السلوك الجنسى للشباب تغير نتيجة لتحسن نوعية الغذاء والرعاية الصحية . مما أدى إلى بلوغ مبكر بين الفتيات كما تغيرت مفاهيم الجنس نتيجة

---

(١) جريدة Hindustan Times عدد ١٢ سبتمبر سنة ١٩٦٠

(٢) الإسلام يتحدى ص ١٦٨ - ١٧١ الطبعة الثالثة بمصر سنة ١٩٧٣

لتغير البيئة ، ويلقى الأطباء والعلماء والخبراء اللوم لانتشار هذه الظاهرة على الحكومات والمجتمع بأسره .

وقد وصلوا إلى هذه الحقيقة بعد التشاور مع خبراء الصحة العالمية ، وقدمت منظمة الصحة العالمية تقريرا يفيد بأن عددا كبيرا من البلاد أبلغتها بحدوث تزايد مطرد فى عدد الأطفال غير الشرعيين ، وعمليات الإجهاض . وأن نسبة كبيرة من هذه الحالات تحدث بين المراهقات . وتقول الدكتوره « كارمن أوستردم » إنه فى بعض البلدان تمارس ٩٠٪ من الفتيات الجنس فى سن المراهقة وإن رأيها الشخصى : إنه يجب تغيير موقف الحكومات لوقف هذه الزيادة الرهيبة عن طريق تدريس الجنس كمادة من مواد الدراسة طالما أن المعلومات الواقعية الصحيحة ، لن تهدر القيم

كما يجب توعية المراهقات أن الجنس يتضمن المسئولية مما قد يخفض نسبة حالات الحمل والإجهاض كما تقول الدكتورة « رايد يلومكتس » : إن نسبة كثيرة من المراهقات يحتجن إلى ثقافة جنسية حيث إن ممارسة الجنس فى سن مبكرة لم تعد وقفا على الطبقات الفقير كما كان الحال فى الماضى ، ولكنها أصبحت أكثر شيوعا بين الطبقات الغنية رغم أن ٢٥٪ من المراهقات يستعملن وسائل منع الحمل . وتقع الفتيات تحت ضغط مجموعة الأصدقاء والزملاء من الفتيات والفتيان لتتجاوب مع النمط السلوكى الجديد فيما يتصل بالعلاقات الجنسية فى الوقت الذى تكون فيه معلوماتهن عن نتائج تلك العلاقات محدودة . وقد انتقد الاجتماع عدم وجود تشريع يؤيده الآباء لتدريس وسائل منع الحمل فى المدارس ، مع أن هذه الخدمات تقدم للسيدات الناضجات والزوجات . ولكن التقاليد والعوائد ، وحتى القانون يحول بين المراهقات واستخدام هذه الوسائل . فيجب أن تقدم هذه الخدمات للمراهقات ليستفدن من المزايا التى تقدم للزوجات »

هذا هو كلام الصحة العالمية ، ونلاحظ بكل أسف أنها تعالج المشكلة ، مشكلة دعارة المراهقات بما يزيدها ، اشتعالا فهى تقترح استعمال وسائل منع الحمل لعدم ظهور آثار هذه الإباحية والدعارة الاجتماعية العلنية بدلا من أن تعالج المشكلة من جذورها والقضاء عليها من أساسها بالفصل بين الجنسين وابعاد الكبريت عن البنزين ، وإشاعة قيم ومبادئ العفة والطهارة والشرف والمحافظة على الأعراض ، أعنى مبادئ الإسلام الحنيف ، التى لها الفضل فى حماية المجتمعات الإسلامية من هذه الظاهرة الحيوانية الخطيرة .

الفصل الثانى

دعاوى چورديان

فى ضوء هذه الإشعاعات الدينية من قرآن وسنة . درج العرب والمسلمون فى القديم والحديث ، فلم يعتبروا المرأة فى يوم من الأيام حضيضة الشأن ، محملة بالذنوب ، نجسة كالكلب والخنزير ، كما يدعى هذا الكاتب « جورديان » .

والجامعة الأزهرية التى يرميها هذا الكاتب بالجمود والتأخر ، والوقوف عقبة فى سبيل تقدم المرأة تضم وهى الجامعة الدينية الإسلامية الأم – إلى كلياتها العديدة ، كلية خاصة بالمرأة تسمى كلية البنات الإسلامية . وسوف تصبح عما قريب جامعة البنات الإسلامية . . تدرس فيها الفتاة المسلمة جميع فروع المعرفة والثقافة : دينية ، ودنيوية ، نظرية ، وعملية .

وفى أكثر بلاد العروبة والإسلام : الكاتبات والأديبات ، والطبيبات والمهندسات والمحاميات والعالمات فى الذرة ، والعضوات فى المجالس النيابية ، والاتحادات النسائية . ووصلت المرأة إلى مقاعد الوزارة فى أكثر من بلد إسلامى وعربى . ووزارة الصحة فى أفغانستان تترأسها وزيرة لاوزير ، وكذلك وزارة الشئون الاجتماعية فى مصر .

لا وساطة بين المرأة وربها :

إنه لمن الجهل الفاضح المخزى أن يقول « جورديان » : إن الله لا يطلب من المرأة صلاة ، أو زيارة للمسجد . اكتفاء بأن تعبد الرجل الذى هو صلة بينها ،

وبين ربها » وينسب ذلك إلى الإسلام وتعاليمه .

والحق أنه ليس فى دين الإسلام أحد يغنى عن أحد ، وليس فيه أحد يسجد لأحد ، أو يعبده من دون الله . وليس فيه صكوك غفران ، أوكراسى اعتراف ، أو غفران أب لأبنائه ، أو أن يغنى أحد عن أحد . ففى القرآن الكريم «كل نفس بما كسبت رهينة (١) » «كل امرئ بما كسب رهين (٢) » «فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره (٣) » وفى الأحاديث النبوية «عن عائشة أن أسامة كلم النبي ﷺ فى امرأة سرقت فقال : إنما أهلك من كان قبلكم . انهم كانوا يقيمون الحد على الوضيع . ويتركون الشريف . والذى نفسى بيده . لو أن فاطمة بنت محمد فعلت ذلك لقطعت يدها (٤) » وفى البخارى أيضا عن عائشة رضى الله عنها : أن قريشا أهمتهم المرأة المخزومية التى سرقت . فقالوا : من يكلم رسول الله ﷺ ؟ ومن يجترئ عليه إلا أسامة حِبٌّ رسول الله ﷺ ؟ فكلم رسول الله ﷺ . فقال : أتشفع فى حد من حدود الله ؟ ثم قام فخطب . قال : يا أيها الناس : إنما ضل من قبلكم . أنهم كانوا إذا سرق الشريف تركوه ، وإذا سرق الضعيف فيهم أقاموا عليه الحد . وايم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطع محمد يدها (٥) »

إن الاتصال بالله فى دين الإسلام : هو اتصال مباشر ، لا يحتاج إلى وساطة أو شفاعة أو مساعدة يقول الله فى محكم كتابه «وإذا سألك عبادى عنى ، فإنى قريب . أجيب دعوة الداع إذا دعان (٦) » ويقول «وقال ربكم ادعونى

(١) المدثر ٣٨

(٢) الطور ٢١

(٣) الزلزلة ٧ — ٨

(٤) البخارى — باب إقامة الحدود

(٥) البخارى — باب كراهية الشفاعة فى الحد إذا رفع الى السلطان

(٦) البقرة ١٨٦

أستجب لكم[1] » وقال تعالى فى وصف نفسه « غافر الذنب ، وقابل التوب[2] » وقال « وهو الذى يقبل التوبة عن عباده ، ويعفو عن السيئات ، ويعلم ما تفعلون[3] » وبين القرآن أنه لا أحد فى يوم القيامة يغنى عن أحد مهما كان بينهما من علقة وقرابة ، وأن الإنسان يفر من أمه وأبيه وزوجته وبنيه . فقال تعالى « يوم يفر المرء من أخيه ، وأمه وأبيه ، وصاحبته وبنيه ، لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه[4] » وأمر الله نبى الإسلام أن يقول لأهل الكتاب يهودا ونصارى « تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ، أن لا نعبد إلا الله ، ولا نشرك به شيئا ، ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله[5] » وذمهم القرآن ووبخهم على هذا العمل فقال « اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله والمسيح ابن مريم ، وما أمروا إلا ليعبدوا إلها واحدا[6] »

وعلى ما قدمنا من النصوص المقدسة فى نظر المسلمين يتبين لنا : أنه لا وساطة بين المرء وربه والوساطة التى يتشدق بها « جورديان » منفية أصلا من الدين الإسلامى . وإنما هى لوثة لحقت بعقله وتسلطت عليه ، تأثرا بما جاء فى صكوك الغفران ، التى ابتدعتها الكنيسة الغربية ، وكانت سببا فى انشقاق البروتستانت عن الكاثوليك . كانت نصوصها تقول :

« ربنا يسوع المسيح يرحمك ، ويعفو عنك باستحقاقات آلامه المقدسة (وبعد) فقد وهب لى بقدرة سلطان رسله : بطرس وبُولُس ، والبابا الجليل فى

---

(١) غافر ٦٠

(٢) غافر ٣

(٣) الشورى ٢٥

(٤) عبس ٣٤ – ٣٧

(٥) آل عمران ٦٤

(٦) التوبة ٣١

(٧) نقلا عن كتاب : إظهار الحق – الشيخ رحمة الله الهندى ج ٢ ص ٣٦ طبعة مصر سنة ١٩٠٧ م

هذه النواحى : أن أغفر لك أولا عيوبك الإكليروسية مهما كانت . ثم خطاياك ، ونقائصك مهما كانت تفوت الإحصاء . بل أيضا : الخطايا المحفوظ حلها للبابا . وبقدر امتداد مفاتيح الكنيسة الرومانية : أغفر لك كل العذابات التى سوف تستحقها فى المطهر ، وأردك إلى أسرار الكنيسة المقدسة ، وإلى اتحادها ، وإلى ما كنت حاصلا عليه عند عمادك من العفة والطهارة حتى أنك متى مت تغلق فى وجهك أبواب العذابات وتفتح لك أبواب الفردوس . وإن لم تمت الآن فهى باقية لك بفاعلية تامة إلى آخر ساعة موتك باسم الآب والابن والروح القدس آمين (١) » .

لا غسل من المرأة إلا بعد الجماع :

ولست أدرى من أى المصادر استقى « جورديان » الدعاوى القائلة بأن المرأة فى نظر العرب والمسلمين لا يجوز مس جسدها ، وإذا قدر للرجل أن يلمس جسدها فيجب أن يتطهر ويغتسل من رأسه إلى قدميه ، قبل أن يقف بين يدى الله ؟ لعله سمع عما فى دين الإسلام من طهارة الغسل بعد الجماع ، فظن أن هذا الغسل إنما وجب لأن المرأة نجسة ، وظن أن الجماع مجرد لمس جسد لجسد وهكذا يكون حفظ شيئا ، وغابت عنه أشياء . ويكون كما قال القائل :

وكم من عائب قولا صحيحا وآفته من الفهم السقيم

يا جورديان . مالك وللديانات والخوض فى أسرار الشرائع المنزلة التى بينك وبينها حجاب .

إذا لم تستطع شيئا فدعه وجاوزه إلى ما تستطيع

أتظن أنك بقضائك فى بلاد العروبة والإسلام عدة شهور ترافقك « كلاوده

---

(١) نقل عن كتاب : إظهار الحق – الشيخ رحمه الله الهندى حـ ٢ ص ٣٦ طبعة مصر سنة ١٩٠٧ .

ديفارجه » تحملان آلات التصوير ، تقفزان هنا وهناك ، تكون بذلك قد فهمت حقائق الإسلام وأسراره ؟ أم تظن أنك لا تكون رحالة ، أو بحاثة ، أو مراسلا لمجلة إلا إذا رحت تستلفت أنظار الناس ، وانتباههم ، بما تذكر من الغرائب المخترعة الملفقة فى أسلوب لعلك أقتبسته وأنت فى رحلتك فى بلاد الشرق من أساليب الرواية الشرقية المشهورة « ألف ليلة وليلة »

إعلم يا جورديان إن عملية الغسل هذه طهارة ونظافة ، وإزالة حدث وظلمة اعتبارية قامت بالأعضاء . وهى فى الوقت نفسه تجديد للنشاط بعد الفتور الذى حصل للجسد بعد الجهد الذى بذله فى عملية الجماع . وهذا مما شهد بعظمته وجدارته علماء الطب من غير المسلمين ، بله المسلمين .

والغسل بعد الجماع واجب على المرأة كالرجل لا يقف أحد منهما بين يدى الله للصلاة إلا إذا تطهر . فهل نقول : على حسب فهمك – إن المرأة تغتسل لأن الرجل نجس كالكلب والخنزير؟ أم نقول : إن للنظافة والطهارة فى دين الإسلام عرفا عريقا ، وفى الوقت الذى كانت فيه تعاليم الإسلام تعمل عملها فى نظافة المسلمين فى مسكنهم وملبسهم ومأكلهم ، وشوارعهم ، ومرافق حياتهم . كان أهل أوربا يعبدون الله ، ويتقربون إليه بالوساخة والقذارة ، والابتعاد عن رش أجسادهم بالماء ، فتنبعث الروائح الكريهة من أجسادهم وبيوتهم ، وشوارعهم آناء الليل وأطراف النهار .

اقرأ التاريخ يا جورديان ! !

إن أوربا بما فيها من علم وحضارة وتقدم مدينة للعرب وللمسلمين . فعن العرب والمسلمين اقتبست أوربا حضارتها ، وتقدمت وأسرعت فى عدوها إلى الأمام فسبقت ، وقد تسبق « العرجاء » وصارت مع العرب والمسلمين كالتلميذ

الذي ينسى فضل أستاذه ، ويمعن فى الاستهزاء به ، والنكاية له . التلميذ الذى قال فيه أستاذه :

أعلمه الرماية كل يوم فلما اشتد ساعده رمانى
وكم علمته نظم القوافى فلما قال قافية هجانى

يقول روبر تسون المؤرخ الإنجليزى « فى الزمن الذى كان فيه العرب يتدارسون العلوم المختلفة ، وينشرونها فى بلادهم كان أهل أوربا فى جهل مطبق ، ونوم عميق . ولم يستفيقوا منه إلا بعد الحروب الصليبية ، فإنهم وجدوا حين اختلاطهم بالمسلمين علوما لا يعرفونها وبلادا متمدينة ذات نظم محكمة ، فاقتبسوا منها ، وصاروا يدخلونها فى بلادهم »

ولم يكن الإسلام هو الدين الوحيد الذى أمر أن يتطهر الرجل ، وأن تطهر المرأة من الجنابة بل إن التوراة تنص على ذلك وأشق منه وأصعب ، وإن جورديان لملزم بأحكام التوراة إن كان نصرانيا لقول عيسى عليه السلام فيما رواه « متى » « لا تظنوا أنى جئت لأنقض الناموس » [متى ٥ : ١٧] فى التوراة(١) « وإذا حدث من رجل اضطجاع زرع يرحض كل جسده بماء ، ويكون نجسا إلى المساء ، وكل ثوب وكل جلد يكون عليه اضطجاع زرع يغسل بماء ، ويكون نجسا إلى المساء والمرأة التى يضطجع معها رجل اضطجاع زرع يستحمان بماء ، ويكونان نجسين إلى المساء » [لاويين ١٥ : ١٦ — ١٨] يا جورديان .

نحن الذين قال شاعرهم :

إن النساء رياحين خلقن لنا وكلنا يشتهى شم الرياحين

فكيف تكون المرأة فى نظرنا نجسة كالكلب والخنزير ؟ !

---

(١) نقل النصوص من التوراة العبرية ترجمة البروتستانت سنة ١٩٧٠ بمصر والأنجيل من الترجمة المذكورة

المرأة المسلمة والمرأة الغربية :

إن المرأة المسلمة والعربية سبقت المرأة الأوربية الغربية إلى معرفة حقوقها ، ورفعة شأنها وتقديرها واحترامها ، ببضع مئات من السنين ، لكن لم يقدر للمرأة الأوربية والغربية أن تسبق المرأة العربية والمسلمة فى الحصول على حقوقها السياسة إلا بزمن يناهز النصف قرن ، ليس إلا . مع مراعاة أن ما عسى أن يكون فى البيئة العربية والإسلامية من تأخر أو جمود بعض الشيء فى بعض فترات من القرن التاسع عشر ، والقرن العشرين . فإنما الفضل فى ذلك راجع أولا وبالذات إلى أن هذه الفترات كانت فترات ظلام من الغرب ، واستعمار وافد كالحميات الوافدة جثم على صدر البلاد العربية والإسلامية يكتم أنفاسها ، ويمتص دماءها ، ويسلبها الحياة سلبا ويعمل على تأخرها ، وشل فاعليتها ، لتبقى تحت سيطرته ، واستعماره مكسورة الجناح لا ترفع رأسا ، ولا تطلب استقلالا .

إن أمامى الآن إحصائية وبيان عن حصول المرأة على حقوقها السياسة . تقول : إنه بدأ فى سنة ١٩١٠ بقيام ثورة نسائية من عاملات نيويورك قتل فيها ٢٥٠ عاملا ، ثم تأكد حق الانتخاب للمرأة الأمريكية فى سنة ١٩٢٠ ثم كانت كندا فى سنة ١٩١٦ وقبل ذلك نالت المرأة فى نيوزلندا حق الانتخاب .

ومازال الأمر يتسع فى كثير من البلاد حتى كانت سنة ١٩٤٦ عقب الحرب الثانية فكثرت الدول التى حصلت فيها المرأة على حقوقها السياسة فى جميع أنحاء العالم حتى بلغت الآن حوالى ١٠٦ دولة . وفى سنة ١٩٥٦ حصلت المرأة فى جمهورية مصر العربية على حقوقها السياسية كاملة . وفى سائر قارات آسيا وأفريقية وأمريكا اللاتينية . هذه البلاد التى سادها الظلم الاستعمارى والإقطاعى ، وبدأت المرأة تتقدم لتأخذ مكانها فى الكفاح الى جانب الرجل ضد الظلم والرجعية والتخلف ، وشهدت سنوات ما بعد الحرب الثانية مؤتمرات عديدة لنساء تلك القارات ، وقالت مسز أشبى رئيسة الإتحاد النسائى العانى سابقا « إن

وضع المرأة تغير تماما ، فى معظم بلاد العالم ، بدليل أن الرئيسة الحالية للاتحاد النسائى العالمى من سيلان ، وهذا دليل على التقدم الذى أحرزته المرأة الآسيوية »

على أنه قد تحصل المرأة فى بعض البلاد على حقوقها السياسة الانتخابية وهى أقل ثقافة وحضارة ووعيا من امرأة مثقفة واعية ، لم تحصل على حقوقها السياسية والانتخابية وفى شمال سويسرا ، البلاد الراقية لم تحصل المرأة على حقوقها السياسية بعد ، وهى أرقى من المرأة فى بلاد أخرى ، حصلت على حقوقها السياسية ، كما أفضت بذلك زوجة السفير السويسرى بالقاهرة [1].

(١) جريدة الأهرام المصرية فى ١٧ / ٤ / ١٩٦٦م

تعددالزوجات والجوارى
وعفة الزوجة

تعدد الزوجات والجوارى وعفة الزوجة

يقول جورديان : فى أسلوب التأسف واللوم والتشنيع على العرب والمسلمين «كل رجل يستطيع أن يتزوج أربعة ، وأن يمتلك ما شاء من الجوارى » ونحن نبادر إلى الأخذ فى علاج تأسفه ، ولومه وتشنيعه ، فنقول له : إن الأمر ليس على إطلاقه كما يفهم وإن لإباحة تعدد الزوجات فى الإسلام أسبابا وظروفا . فقد جاء الإسلام وتعدد الزوجات بلا قيد ولا شرط يفشو أمره بين الناس ، فلم يشأ أن يمنعه منعا باتا فيكون الحرج والعنت والتضييق الفجائى . ولم يشأ كذلك أن يتركه على حالة من الفوضى والهمجية بل توسط فى الأمر فأباحه الى أربعة فقط بشرط القدرة على العدل بين الزوجات ، والاقتدار على القيام بواجبهن جميعا على سواء . من الوجهات المالية الصحيحه والاجتماعية ، وعدم إضرار الرجل بنفسه وزوجاته وأبنائه . فإن خاف شيئا من ذلك ، وأحس من نفسه عدم القدرة على العدل والنهوض بهذه الأعباء ، فيحرم عليه أنه يتزوج بأكثر من واحدة .

قال تعالى « فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة ، أو ما ملكت أيمانكم [1]» ثم إن التشريع الأسلامى قال عن هذا العدل « ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم فلا تميلوا كل الميل ، فتذروها كالمعلقة ، وإن تصلحوا وتتقوا فإن الله كان غفورا رحيما [2]» وبضميمة

---

(١) النساء ٣ (٢) النساء ١٢٩

هذا إلى الذى قبله يتبين لنا : أنه لا تعدد للزوجات إلا اذا استطعنا العدل بين النساء ، ولن نستطيع العدل الكامل بين النساء ، ولو حرصنا على ذلك ، فتكون النتيجة تحبيبا وترغيبا فى إغلاق باب التعدد .

إلا أنه مع ذلك قد توجد ظروف لا يسع أى عاقل ، أو منصف إلا أن يبيح تعدد الزوجات فيها تمشيا مع يسر الإسلام وواقعيته ، إذا تزوج الإنسان بامرأة فكانت عقيما لا تلد . لماذا يحرم من الأبناء والذرية وهما من زينة الحياة الدنيا ؟ هل الأكرم لها أن تبقى فى عش الزوجية ، وكنف الرجل وإن تزوج غيرها معها ، أم الأكرم لها أن تطلق وتنبذ نبذ النواة ؟ إذا مرضت الزوجة مرضا عضالا ميئوسا من شفائه . لماذا لا يتزوج الرجل بأخرى ؟ أيطلقها مريضة ميئوسا من شفائها عالة على الناس . أم يقع فى الحرام والزنا بغيرها ؟ أم يتعجل نهاية حياتها فيقتلها فيتخلص منها ، ويتسنى له أن يتزوج بغيرها كما يفعل ذلك بعض الذين لا طلاق ، ولا تعدد عندهم ؟ إذا قرر الأطباء الثقاة أنه لا يجوز لهذه الزوجة أن تحمل أو تلد وإلا عرضت حياتها للخطر .

ماذا يفعل الزوج إذا لم يبح له أن يتزوج بغيرها ؟ إذا زاد عدد النساء على عدد الرجال بكميات كبيرة ، لاسيما فى أعقاب الحروب التى وقودها الرجال . فلماذا لا يفتح الباب لتعدد الزوجات ولا تترك هذه الكميات الهائلة من النساء يتضورن جوعا ، ويبعن الهوى الآثم ، ويعشن فى الأرض فسادا ، حتى يجهزن على البقية الباقية من الرجال والشباب ؟ لماذا تأخذنا الشفقة على المرأة المتزوجة فندافع عنها لتظل هى منفردة بالزوج ، ولا تأخذنا الشفقة بالنساء الأخريات اللاتى ينهشهن الضياع ويكويهن الحرمان ؟ أليس الجميع كلهن نساء . بنات حواء ؟ فلماذا العطف على البعض دون البعض ؟ إن هذه تفرقة بلا سبب ولا موجب وقد أحس بهذا الإحساس كثير من غير المسلمين ، وأشادوا به وطالبوا بفتح باب تعدد الزوجات . إننى أضع هنا تحت أنظار جورديان وأمثاله

كلمات حكيمة عادلة لكاتبة انجليزية قالت ما ترجمته « لقد كثرت الشاردات من بناتنا ، وعم البلاء ، وقل الباحثون عن أسباب ذلك . وإذا كنت امرأة ترانى انظر إلى هاتيك البنات ، وقلبي يتقطع شفقة عليهن وحزنا ، وماذا عسى أن يفيدهن بثى ، وحزنى ، ووجعى وتفجعى ، وإن شاركنى فيه الناس جميعا . ؟ ؟

لا فائدة إلاّ فى العمل بما يمنع هذه الحالة الرجسة . ولله در العالم الفاضل « تومس » فإنه رأى الداء ، ووصف له الدواء . الكافى للشفاء ، وهو إباحة التزوج بأكثر من واحدة وبهذه الواسطة يزول البلاء لا محالة ، وتصبح بناتنا ربات بيوت . فالبلاء كل البلاء فى إجبار الرجل الأوربى على الإكتفاء بامرأة واحدة . فهذا التحديد هو الذى جعل بناتنا شوارد وقذف بهن إلى التماس أعمال الرجال . ولابد من تفاقم الشر إذا لم يبح للرجل التزوج ، بأكثر من واحدة »

ويقول الشيخ محمود شلتوت طيب الله ثراه « عرف الزواج فى طبيعة البشر الأولى ، وعرف كذلك تعدد الزوجات فى الحقب الماضية ، وكان له فى كثير من الشرائع السماوية وجود واسع وامتداد الى عدد كثير ، كما يحدثنا التاريخ عن إبراهيم ويعقوب وداود وسليمان وغيرهم من الأنبياء والمرسلين ، وكما يحدثنا عن العرب وغيرهم من أكثر بلاد المعمورة حتى عند أهل أوربا ، فقد كان مباحا عندهم الى عهد شرلمان الذى كان متزوجا بأكثر من واحدة ، ثم أشار القساوسة فى ذلك الوقت على المتزوجين بأكثر من واحدة ، أن يختاروا لهم واحدة ، من بينهن يطلق عليها زوجة ، ويطلق على غيرها اسم « خدن » ومن هنا أخذ التعدد فى أوربا لونا بغيضا يقزز النفس ، ويحرج الصدر ، وينزل بالخلق . وهكذا ظل التعدد محذورا عندهم بالارتباط الشريف ، مباحا بالمخادنة » انتهى

والتوراة التى يؤمن بها اليهود والنصارى معاً تبيح التعدد للزوجات وللإماء بدون عدد محدد فى التوراة عن سليمان عليه السلام هذا النص « وأحب الملك سليمان نساء غريبة كثيرة مع بنت فرعون مُوآبيَّات ، وعمُّونيَّات ، وأدوميَّات ،

وصيدونيّات ، وحِثّيات من الأمم . . . فالتصق سليمان بهؤلاء بالمحبة ، وكانت له سبع مائة من النساء السيدات ، وثلاث مائة من السرارى فأمالت نساؤه قلبه »
[الملوك الأول ١١ : ١ - ٣]

هذه هى مسألة الزواج بأكثر من واحدة . أما مسألة أن يمتلك الرجل ما شاء من الجوارى فتلك ظاهرة كانت من ذيول ظاهرة الرق فى العالم كله ، ولم يبق من هذه ، ولا من تلك إلا بقايا قليلة جدًّا لا تكاد تذكر ، وعند بعض أفراد لا تكاد تعد على الأصابع اليد الواحدة فى العالم الإسلامى كله . فقد كان الرق فاشيا فى العالم كله قبل الإسلام بصورة واسعة النطاق ، وبأسباب لا تكاد تنضبط ، ولا تدخل تحت حصر ، « المصريون والفرس والرومان ، واليونان والهنود ، والصينيون والعرب » .

ولم يكن للرقيق أية حقوق عند سادتهم .

وقد أمرت التوراة بالرق ، والإنجيل أيضا لأن المسيح مصدق للتوراة . فى التوراة « حين تقرب من مدينة لكى تحاربها استدعها إلى الصلح ، فإن أجابتك إلى الصلح وفتحت لك فكل الشعب الموجود فيها يكون لك للتسخير ، ويستعبد لك . وإن لم تسالمك ، بل عملت معك حربا فحاصرها ، وإذا دفعها الرب إلهك إلى يدك فاضرب جميع ذكورها بحد السيف ، وأما النساء والأطفال والبهائم وكل ما فى المدينة ، كل غنيمتها فتغتنمها لنفسك ، وتأكل غنيمة أعدائك التى أعطاك الرب ألهك » .

[التثنية ٢٠ : ١٠ - ١٤] .

هذا بالنسبة إلى الأمة من غير بنى إسرائيل . أما بالنسبة إلى الأمة من بنى إسرائيل فقد جعلت التوراة لها حقا مثل حق العبد تقول التوراة « إذا بيع لك أخوك العبرانى ، أو أختك العبرانية ، وخدمك ست سنين ، ففى السنة السابعة تطلقه حرا من عندك ، وحين تطلقه حرا من عندك ، لا تطلقه فارغا ، تزوده

من غنمك ، ومن بيدرك ، ومن مفصرتك ، كما باركك الرب إلهك تعطيه ، واذكر أنك كنت عبدا فى أرض مصر ، ففداك الرب إلهك . لذلك أنا أوصيك بهذا الأمر اليوم ولكن إذا قال لك : لا أخرج من عندك لأنه قد أحبك . وبيتك إذ كان له خير ، عندك . فخذ المخرز ، واجعله فى أذنه ، وفى الباب فيكون لك عبدا مؤبدا . وهكذا تفعل لأمتك أيضا »

[التثنية ١٥ : ١٢ : ١٦] ويقول بُولُس فى رسالته لأهل أفَسُس « أيها العبيد أطيعوا سادتكم حسب الجسد ، بخوف ورعدة فى بساطة قلوبكم كما للمسيح ، لا بخدمة العين كمن يرضى الناس ، بل كعبيد المسيح عاملين مشيئة الله من القلب ، خادمين بنية صالحة ، كما للرب ليس للناس ، عالمين أن مهما عمل كل واحد من الخير ، فذلك يناله من الرب عبدا كان أم حرا ، وأنتم أيها السادة : افعلوا لهم هذه الأمور تاركين التهديد عالمين أن سيدكم أنتم أيضا فى السموات ، وليس عنده محاباة » .[أفسس ٦ : ٥ - ٩] .

ولما ظهر الإسلام قصر الرق على حالة واحدة ، هى التى تكون فى أعقاب الحرب ، ووقوع أسرى الأعداء من الرجال والنساء فى أيدى المسلمين المجاهدين فى سبيل الله ، المدافعين عن دينهم وحياتهم ووجودهم ، ولهم أن يمنوا على الأسرى بالعفو ، ولهم أن يقبلوا منهم الفداء ، ويخلو سبيلهم ، ولهم أن يضربوا الرق عليهم يقول تعالى : « فإذا لقيتم الذين كفروا ، فضرب الرقاب حتى إذا أثخنتموهم ، فشدوا الوثاق . فإما منا بعد ، وإما فداءً ، حتى تضع الحرب أوزارها(١) »

ولقد أباح الإسلام للمالك : أن يعاشر التى ملكها عن هذا الطريق ، معاشرة الزوجات ويكون ذلك سبيلا إلى عتقها وحريتها فى المستقبل ، فلا نجاسة فى

---

(١) محمد ٤

الإسلام ، ولا استرقاق للحر فى الإسلام ولا اعتداء على أحد بضرب الرق عليه ظلما وعدوانا .

وقد كان من الرقيق رجالا ونساء من يعتنق الإسلام ، وينبغ فيه أكثر من سادته ، وكانت صفية إحدى زوجات الرسول ﷺ من سبايا اليهود ، أعتقها ﷺ وتزوجها .

وكانت مارية القبطية مملوكة أهداها المقوقس عظيم مصر ، إلى رسول الله فأعتقها وتزوجها ، وكانت هاجر أم اسماعيل عليه السلام مملوكة أخدمها ملك مصر سَارَةَ زوجة إبراهيم ، فزوجتها لإبراهيم ، فولدت له إسماعيل أبا العرب .

هذا مع ترغيب الإسلام فى عتق الرقيق وإكرامه ، ومعاملته بالحسنى ، واحترام آدميته فى آيات كثيرة جدًّا من كتاب الله . وأحاديث كثيرة جدًّا من كلام رسول الله .

نعم إنه من مبادئ الإسلام المشهورة أنه يدعو كثيرا إلى عتق الرقبة ، وإطلاق حرية المملوك ، ويجعل على ذلك ثوابا كثيرا . وعتق الرقاب أيضا يغفر كثيرا من الذنوب والآثام كما فى كفارة القتل ، وكفارة اليمين ، وكفارة الظهار ، قال تعالى فى الحث على عتق الرقاب « فلا اقتحم العقبة ، وما أدراك ما العقبة ؟ فك رقبة . أو إطعام فى يوم ذى مسغبة ، يتيما ذا مقربة ، أو مسكينا ذا متربة (١) » والمراد : تحريض الإنسان على فعل ذلك العمل الجليل . وقال تعالى فى كفارة الظهار ، الذى يحرم الرجل فيه على نفسه امرأته كحرمة أمه ، ثم يريد أن يرجع فى هذه التحريم « والذين يظاهرون من نسائهم ، ثم يعودون لما قالوا فتحرير رقبة من قبل أن يتماسا . ذلكم توعظون به . والله بما تعملون خبير (٢) » ويقول فى كفارة اليمين « لا يؤاخذكم الله باللغو فى أيمكانكم . ولكن يؤاخذكم بما

---

(١) البلد ١١ – ١٦

(٢) المجادلة ٣

عقدتم الإيمان فكفارته إطعام عشرة مساكين من أوسط ما تطعمون أهليكم ، أو كسوتهم ، أو تحرير رقبة (١) » ويقول فى كفارة القتل « وما كان لمؤمن أن يقتل مؤمنا إلا خطئا ، ومن قتل مؤمنا خطئا فتحرير رقبة مؤمنة ، ودية مسلمة إلى أهلة إلا أن يصدقوا (٢) » وقد كانت آخر كلمات الرسول الكريم وهو فى فراش مرض موته ، وصيته المشهورة فى إكرام الرقيق التى رفع فيها يده وهو يقول « الصلاة ، الصلاة ، وما ملكت أيمانكم » ووصيته بالرقيق بجانب الصلاة التى هى أول أركان الإسلام يدل على أهمية الوصية وعظم الثواب فيها .

فما أعظم حقوق الرقيق فى الإسلام إذا قورنت بحقوق الرقيق فى بلاد الاستعمار ونظامه . الذى كان يقوم على خطف الآدميين من المستعمرات ، وشحنهم فى البواخر كالحيوانات وتصديرهم إلى حيث يريد الاستعمار من قارة إلى قارة ، بلا شفقة ولا رحمة ، ولا أدنى احترام للآدمية .

وقد أوجب الإسلام الإحسان إلى المملوكين وجعله كالإحسان إلى الوالدين وذوى القربى . فقال تعالى « واعبدوا الله ، ولا تشركوا به شيئا ، وبالوالدين إحسانا ، وبذى القربى واليتامى والمساكين والجار ذى القربى ، والجار الجنب ، والصاحب بالجنب ، وابن السبيل ، وما ملكت أيمانكم . إن الله لا يحب من كان مختالا فخورا(٣) » وفى صحيح البخارى كتاب مستقل سماه « فى العتق وفضله » ذكر فيه كثيرا من الأحاديث التى تحبب فى عتق الرقبة كمثل قوله ﷺ « أيما رجل أعتق أمرأ مسلما استنفذ الله بكل عضو منه ، عضوا منه من النار » وجاء فيه أن النبى ﷺ يأمر عند كسوف الشمس بعتق الرقاب قربى إلى الله » عن أسماء بنت أبى بكر رضى الله عنهما قالت: أمر النبى ﷺ بالعتاق فى كسوف

(١) المائدة ٨٩

(٢) النساء ٩٢

(٣) النساء ٣٦

الشمس » وجاء فيه قوله ﷺ « من كانت له جارية فعالها فأحسن إليها ، ثم أعتقها وتزوجها كان له أجران » وقوله ﷺ عن العبيد « إن إخوانكم خولكم ، جعلهم الله تحت أيديكم . فمن كان أخوه تحت يده ، فليطعمه مما يأكل ، وليلبسه مما يلبس ولا تكلفوهم ما يغلبهم ، فإن كلفتموهم ما يغلبهم فأعينوهم » وقوله ﷺ « لا يقل أحدكم : عبدى وأمتى ، وليقل : فتاى ، وفتاتى وغلامى » ومدح رسول الله ﷺ العبد الأمين « والعبد راع على مال سيده ، وهو مسئول عنه » وسب أبو ذر الغفارى عبدا مملوكا وعيّره بأمه فقال الرسول ﷺ « أعيرته بأمه ؟ » وفى رواية قال الرسول « إنك امرؤ فيك جاهلية » .

لقد بزغ فجر الإسلام والرق يسود العالم ، ويتفشى فيه ، وكانت له أسباب كثيرة جدا منها أن من يستدين ، ولا يقدر على الرد يكون لصاحب المال الحق فى أن يأخذه عبدا مملوكا . فما أحكم الإسلام حيث أقر الرق وجعل له سببا واحدا هو الأسر فى الحروب إذا أراد الغالب . مع جواز المنّ من الغالب أو أخذ الفدية ، ثم فتح للعتق أبوابا كثيرة متعددة ومتنوعة . مثل ذلك – مثل الحوض من الماء إذا نزل فيه ماء أكثر مما ينزل منه امتلأ وفاض . وإذا ما نزل فيه أقل مما يخرج منه فرغ الحوض من الماء . فحالة الامتلاء هى حالة الرق قبل الإسلام . وحالة الفراغ هى حالته بعد الإسلام . فما أعظم الإسلام ، وما أحكمه . أن الأسير الذى هو أصل الرقيق لم ينس القرآن أن يشير إلى إكرامه ، فقال تعالى فى وصف الأبرار « ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ، ويتيما ، وأسيرا . إنما نطعمكم لوجه الله ، لا نريد منكم جزاء ولا شكورا » (١) .

إن ضحايا الرق على الطريقة الاستعمارية والغربية والحديثة قد لجأوا إلى الإسلام أخيرا ، يجعلونه طوق النجاة مما هم فيه من ذل واستعباد . فالإسلام إذاً ليس الدين الذى ابتدع الرق وشرعه بصورة فيها إجحاف بحقوق الرقيق ، ولكنه

---

(١) الإنسان ٨ – ٩ .

الدين الذى يحارب الرقيق فى أبشع صوره ، وأقبح أشكاله لأنه دين الحرية والإخاء والمساواة ، فلا فضل لأحد على أحد إلا بالتقوى ، وكلكم لآدم ، وآدم من تراب .

وقد جاء فى مجلة الثقافة عدد يوليو ١٩٧٦ م مقال بعنوان « الحركة الإسلامية فى الولايات المتحدة الأميريكية » يقول فيه كاتبه « وعرف الإسلام طريقه إلى قلوب الملونين السود « زنوج أمريكا » فى ظروف اجتماعية صعبة ، فكان طوق النجاة الذى تعلقوا به ليحملهم إلى بر الأمان فى هذا الخضم العاتى الذى استذلهم ، وامتهن آدميتهم ، واهتضم حقوقهم الإنسانية . ومن المعروف أن زنوج أمريكا ، هؤلاء ينتمون بأصولهم العرقية إلى إفريقيا . فعندما اكتشف الرجل الأبيض شواطئ إفريقيا الغربية لم تكن القارة السوداء قد تكشفت عن كنوزها . فلم يجد البيض أمامهم من النهائب غير الإفريقيين أنفسهم ، وأسرّوهم بضاعة ، وجدت سوقا نافقة عندما اتسعت وراجت تجارة الرقيق بعد اكشاف أمريكا ، وكانت عالما مجهولا مغلقا على سكانه الأصلاء الذين سموهم « الهنود الحمر » .

لقد استجاب لنداء القارة العذراء الكثيرون من سكان العالم القديم . نزحوا إليها مهاجرين فرارا من الفقر ، ومن الإضطهادات المذهبية والسياسية ، أو طمعا فى خبرات العالم الجديد باستثناء الملونين السود . فهؤلاء لم يهاجروا إلى أمريكا ، وإنما جلبهم تجار الرقيق ليكونوا عبيد الأرض فى الدنيا الجديدة . وبخاصة فى المزارع الجنوبية التى لا يتحمل حرارتها الرجل الأبيض .

ويتفق الهنود الحمر ، والملونون السود فى أن كلا منهما أقلية تعانى الإضطهاد والتفرقة ، ولكنهما بعد ذلك يختلفان . فالهنود الحمر ، أمريكيون أقحاح لم يجتلبوا إليها من الخارج ، ثم هم قلة معزولة . خلافا للسود الذين يمثلون كثرة نسبية ، ويشكلون قوة عاملة لها ثقلها ، وعليها أن تعمل ، وليس لها حقوق . فهم عبيد منبوذون مجردون من حقوق الإنسان حتى بعد أن صدرت التشريعات التى تحرم

التفرقة العنصرية فى أمريكا ، فقد استمرت هذه الأوضاع المجحفة بصورة أو بأخرى ، ومازالت الولايات الأمريكية الجنوبية * على الرغم من هذه التشريعات - تعامل السود معاملة لا تتفق مع روح العصر ، ولا تليق بكرامة الإنسان ، فهم يمنعونهم من دخول مطاعم البيض ، ومن غشيان دور السينما والملاهى التى يغشاها البيض ، وكذلك الأمر بالنسبة لدور التعليم وغيرها .

وفى أوائل الأعوام الدراسية كانت تقوم الدنيا وتقعد لأن جامعات بعض الولايات الجنوبية ترفض قبول الطلبة السود ليتعلموا فيها كما يتعلم إخوانهم البيض ، ويثور الملونون وهم كتلة بشرية يعتد بها فى هذه الولايات . وتصر الجامعات على رفض قبول أوراق الطلبة الزنوج ويتمسك هؤلاء بحقهم فى العلم . ويتعصب ضدهم حكام هذه الولايات ، تساندهم القوات المحلية ، والعنصريون من البيض ، وتندلع الحركات العنيفة والمظاهرات الصاخبة ، ويصل الأمر إلى القضاء وتقضى المحاكم بقبول الطلبة السود فى الجامعات ، ويرفض رؤساء الجامعات تنفيذ أحكام القضاء ، وتتسع المسألة ، وتتعقد ، وتتدخل القوات الفيدرالية ، ولا يغرنك ما تراه فى الولايات الشمالية من بعض مظاهر المساواة التى يتمتع بها الملونون فى الشمال ، فإن ذلك لم يأت على كل رواسب الماضى . ومازال الأمريكيون والأوربيون ينظرون إلى السود نظرتهم إلى المواطنين من الدرجة الثانية . ونضرب مثلا لذلك بالحادثة التالية :

فقد حدث فى أغسطس من عام ١٩٦١م أن كان السيد « ميشيل كوليبيه » . وكان يمثل غانا فى الأمم المتحدة - يسير فى أحد شوارع نيويورك ، فحاول أن يستوقف سيارة أجرة ، وأشار إلى السائق ، ولكن هذا ؟ رفض أن يركبه سيارته لمجرد أنه ملون ، وثار السفير الغانى ، ووقعت بينه وبين السائق مشادة تطورت إلى تضارب بالأيدى على مشهد من رجال الشرطة الذين انضموا إلى السائق ، وفى دار الشرطة أثبت السفير الغانى شخصيته فأفرج عنه فورا ، وأسرع » ادلاى

ستيفسون» وكان يمثل أمريكا يومئذ فى الأمم المتحدة ، فأصدر بيانا يعتذر فيه ، ويبدى أسفه .

إن إعلان حقوق الإنسان ينص على أن الناس سواسية ، وأنهم لا يتمايزون بألوانهم ، ولا بأديانهم ، فلماذا تتنكر أمريكا لأول مبادئ حقوق الإنسان ؟ وكيف وهيئة الأمم المتحدة تستقر على أراضيها ؟ .

من هنا بدأت حركة الملونين السود فى أمريكا . تمردوا على هذا الإزلال . ورفضوا هذه الأوضاع المهينة ، وظاهرتهم شرائع السماء والأرض ، والتشريعات الأمريكية ذاتها . ولكن الولايات المتعصبة قابلت حركتهم بالقمع فزادتها اشتعالا .

لقد نشأ هؤلاء الملونون فى أمريكا ، لا يعرفون لهم دينا . اللهم إلا دين سادتهم من البيض فتمسحوا ، أو تهودوا . وربما بقى بعضهم بلا عقيدة ، ولكنهم مضطهدون منبوذون ليس لهم تاريخ ولا مقومات ، ولا يجمعهم إلا السخط والاشتراك فى معاناة هذه الأوضاع الظالمة ، والرغبة فى الانعتاق من ربقة العبودية والاضطهاد ، ومن ثم كان التفات بعضهم إلى الإسلام . فليست لهم مع المسلمين تجارب أليمة كتلك التى يعانون قسوتها مع سادتهم من البيض المسيحيين واليهود .

وكان أروع ما ألهب وجدانهم ، وشد اهتمامهم تلك المساواة التى تقوم عليها سماحة الإسلام . فالناس سواسية كأسنان المشط ، والمؤمنون إخوة ، ولا فضل لأحد على أحد إلا بالعمل الصالح ، ولم يكن الملونون يريدون أكثر من ذلك . فدخلوا فى دين الله أفواجا ، وظهر فيهم دعاة وقيادات مختلفة ، تدعو إلى تحرير رقابهم وأرواحهم باسم الإسلام .

وسرعان ما انتشرت الدعوة ، وتكونت الروابط والمراكز الإسلامية ، وسموها أولا : معابد ، ثم مساجد . ونشطت الدعوة وتطورت ، فقاموا بحركة اجتماعية

واقتصادية وثقافية . فأصدروا المطبوعات ، وأنشأوا المدارس والمشافى ، وأقاموا التعاونيات التجارية واتسعت حركتهم وزاد عددهم . . وانضم إليهم أبطالهم الرياضيون المرموقون من أمثال البطل العالمى : محمد على كلاى ، وأبو رزق ، وكريم عبد الجبار . فكان ذلك واجهة دعائية أخرى لها بريقها ، وأثرها » انتهى .

ثم يقول « جورديان » فى تعجب وأسف بالغين : « أما المرأة فعليها أن تبقى عفيفة ، طاهرة حتى الزواج ، ووفية مخلصة حتى تموت » ولسنا ندرى لماذا يعجب ويأسف لهذا ؟ **إن المفروض هو ذلك العفاف ، والشرف والوفاء والإخلاص والمحافظة على العرض قبل الزواج وبعده ، وطيلة حياة المرأة .**

إذا كان عفاف المرأة وشرفها قبل الزواج وبعده ، أمرا مفروضا ، مطلوبا فى البيئة العربية الإسلامية وكان جورديان يعجب منه ، ويتأسف له . فهل نفهم من هذا : أن هذه المفاهيم والقيم لا وجود لها عند الغربيين . فلا شرف عندهم ولا عرض ولا عفاف ؟ وهل نفهم من هذا أنهم يعتبرون العفاف والإخلاص والوفاء عند المرأة نقيصة من النقائص ؟ وهل من حق المرأة عندهم قبل الزواج ومن بعده : أن تتحلل وتنحرف وتروى ظمأ أنوثتها كيف شاءت . ومتى شاءت ، ومع من شاءت ! فلا ارتباط بزوجية ، ولا تقيد بأسرة ، ولا حفاظ على نسب ، ولا اعتبار بعذرية أو بكارة ، وإنما هى بهيمية حيوانية ، منتهى حذرها ، وتحفظها أم تملأ حقيبة يدها بحبوب منع الحمل .

مقاييس مقلوبة ، ومعايير معكوسة ، وطباع منكوسة ، وآدمية موكوسة ، وفطر مدخولة فاسدة ، لا يرجى منا خير ، ولا يفيد معها نقاش . هذه التى تأخذ على عاتقها الدعوة الفحش والفجور ، والتحلل والإثم ، والعار . وتعتبر عفاف المرأة قبل الزواج وبعده : أمرا سخيفا يؤسف له

ياجورديان . إننا هنا عرب ، ومسلمون .

يهون علينا أن تصاب جسومنا وَتسلم أعراض لنا وعقول

ننادى بعفة المرأة ، والمحافظة على شرفها ، ونعتبر المرأة المفرطة فى نفسها ، امرأة ساقطة فرأس مال المرأة عرضها ، وحياؤها ، وعفافها . وما تنزلت شريعة سماوية إلا وهى تحض على حفظ الأعراض والأنساب ، وقد جأرت بالشكوى بعض البلاد العربية التى انتشر فيها الفساد الخلقى ، والجنسى ، انتشار النار فى الهشيم ، وأصبح الأولاد غير الشرعيين فيها يشكلون نسبة عالية لو اضطردت زيادتها لوصلت الدولة فى يوم من الأيام إلى قطيع كبير من أولاد الحرام ، الذين لا يعرف لهم أصل ، ولا فرع ، كالحيوانات تماما .

المرأة الساقطة فى نظر العرب والمسلمين زانية ، ودستورهم ، وكتاب ربهم يقول : « الزانى لا ينكح إلا زانية أو مشركة ، والزانية لا ينكحها إلا زان أو مشرك ، وحرم ذلك على المؤمنين » (١) فالزنا والشرك من واد واحد ، ولا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن . ففى الحديث عن رسول الله ﷺ « قال : لا يزنى الزانى حين يزنى ، وهو مؤمن ، ولا يشرب الخمر حين يشرب وهو مؤمن ، ولا يسرق حين يسرق وهو مؤمن ، ولا ينتهب نهبة يرفع الناس إليه فيها أبصارهم وهو مؤمن » (٢) ويقول الله محذرا من الزنا والفحش « ولا تقربوا الزنا إنه كان فاحشة وساء سبيلا » (٣) .

عندنا شيء اسمه غض البصر ، وحفظ الفرج لكل من الرجل والمرأة . فبالنسبة للرجال يقول تعالى « قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ، ويحفظوا فروجهم ، ذلك أزكى لهم إن الله خبير بما يصنعون » (٤) وبالنسبة للنساء يقول

---

(١) النور ٣

(٢) البخارى باب لا يشرب الخمر

(٣) الإسراء ٣٢

(٤) النور ٣٠

تعالى « وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ،ويحفظن فروجهن ، ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها ، وليضربن بخمرهن على جيوبهنَّ ، ولا يبدين زينتهن إلا لبعولتهن ، أو آبائهن ، أو آباء بعولتهن ، أو أبنائهن ، أو أبناء بعولتهن ، أو إخوانهن أو بنى أخوانهن أو بنى اخواتهن ، أو نسائهن ، أو ما ملكت أيمانهن ، أو التابعين غير أولى الإربة من الرجال ، أو الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء ، ولا يضربن بأرجلهن ليعلم ما يخفين من زينتهن ، وتوبوا إلى الله جميعا أيها المؤمنون لعلكم تفلحون » (١) والمراد من غض البصر ؛ وما ذكر معه : الطهارة والتعفف ، وعدم الاسترسال فى المغازلة ، لأنها توصل إلى الإثم والفسوق .

إن الحفاظ على العرض والشرف فى البيئات الإسلامية والعربية ، أهازيج تهزج النساء والرجال ، وتهزج بها الثقافة الإسلامية ، والفكر الإسلامى ، والأدب العربى قبل الإسلام وبعده هذه هى انطباعاتنا من وحى العروبة والإسلام ، والقرآن الكريم ، وسنة سيد المرسلين ، وعندما نقول : إن المرأة العربية المسلمة تنهض وتتعلم ، وتعمل وتتقدم ، فإنما نقصد أن يكون ذلك كله فى الحدود المرسومة ، والتقاليد الصحيحة الموروثة ، والتعاليم الدينية الإسلامية السامية فنهضة المرأة فى مفهومنا عمل ، وإنتاج ، ومشاركة فى الحياة بذمة وشرف وأمانة تتحلى بها المرأة أينما كانت فى بيتها أو وظيفتها ، أو زراعتها أو صناعتها أو تجارتها . ليست نهضة المرأة فى مفهومنا هزّ أرداف ، ولا كشف أذرع ، ونحور وسيقان . ولا أصباغ وعطور تلطخ بها الوجوه والشفاه ولا تسكع فى الشوارع ، والطرقات ، والمحافل والمنتديات لاصطياد قلوب الرجال ، والقضاء على رصيد الأمة من الطهارة والأخلاق .

فإنما الأمم : الأخلاق ، ما بقيت فإن همُ ذهبت أخلاقهم : ذهبوا

(١) النور ٣١

إن جورديان بناء على عجبه ، ودهشته ، من أن العرب والمسلمين يعتبرون فى الفتاة قبل الزواج ، وفى المرأة بعد الزواج : العفة والاستقامة . راح يطيل فى مقاله هذا ، يذكر حكايات هى أقرب إلى أن يكون ما فيها فضلا ، ومزية ومفخرة من أن يكون عيبا ، أو نقيصة . فقد أخذ يحبك فى شبه أقصوصة حواريَّة . حادثة رآها ، وهو فى صحراء العراق ، يجهد نفسه عبثا فى أن يخلق فيها ما يثير عجبا أو دهشة ، وأية دهشة أو عجب فى أن تتوقف به السيارة هو ورفيقته « كلاوده » وراهب فرنسى ، ومهندس سويسرى فى الصحراء بين بابل والبصرة ، فيلمحون قافلة صغيرة فيها بعض الرجال القلائل ، وامرأة ، وجمل وحماران . فيتحدثون إلى هذه القافلة فيفهمون أنهم يرجعون بجذه المرأة مقبوضا عليها إلى أبيها التاجر فى الديوانية وكانت قد هربت مع عشيقها إلى البصرة .

ويحكى كذلك فى أسلوب التعجب والتأسف : أنه عرف رجلا فى بيروت كان يحترف قتل البنات المنحرفات ، والنساء الساقطات لحساب الأسر ، والعائلات التى تثأر لشرفها ، وتنتقم لعرضها . فمهما يكن من الخطأ والصواب ، أو الصدق والكذب فيما قاله وصوره ، فإن الذى يبدو واضحا جدا أن جورديان مغيظ محنق ، لأنه لازال فى بلاد الشرق والعروبة والإسلام : أناس يهتمون بالعرض والشرف . وهو أمر لا يهضمه ، ولا يستسيغه ، ولا يتذوق له طعما .

ومن يك ذا فم مر مريض   يجد مرا به الماء الزلالا

شهادة المرأة أمام القضاء :

يقول جورديان عن المرأة إنها فى نظر الإسلام » أقل عقلا من الرجل ، وأنها أمام القضاء شهادتها على النصف من شهادة الرجل ، وكذلك أمام الله »

ولسنا ندرى للمرأة أمام الله إلا أن يكون ذلك فى يوم القيامة ، وشهادتها هناك كأى رجل يشهد ، أو أى شئ يشهد . أما أن يكون جورديان يعتقد أو

يظن أن الله فى هذه الأرض ، وهذه الحياة الدنيا جلسات يجلس فيها للقضاء ، فيعتبر شهادة المرأة على النصف من شهادة الرجل ، فهذا شىء لا نعرفه ، ولم نسمع عنه ، ولم يقل به أحد من المسلمين .

وكذلك أن تكون شهادتها أمام القضاء على النصف من شهادة الرجل شىء لا يعززه الفهم الصحيح الدقيق لتعاليم الإسلام . فإن الآية الكريمة التى لعل « جورديان » يعنيها ، ويفهم فيها هذا الفهم الخاطئ غير واردة فى مقام القضاء والتقاضى ، وإقامة الشهود فى ساحة القضاء أمام القضاء ، بل هى واردة فى مقام كتابة الدين ، وتوثيقه والإشهاد عليه ، من حيث إنه تثبيت واستيثاق ، وتذكير بين الناس بعضهم مع بعض . وذلك حيث يقول تعالى :

يأيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمى ، فاكتبوه ، وليكتب بينكم كاتب بالعدل ، ولا يأب كاتب أن يكتب كما علمه الله فليكتب ، وليملل الذى عليه الحق ، وليتق الله ربه ، ولا يبخس منه شيئا . فإن كان الذى عليه الحق سفيها ، أو ضعيفا ، أو لايستطيع أن يمل هو ، فليملل وليه بالعدل ، واستشهدوا شهيدين من رجالكم ، فإن لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان ممن ترضون من الشهداء أن تضل إحداهما ، فتذكر إحداهما الأخرى . ولايأب الشهداء إذا ما دعوا ، ولا تسأموا أن تكتبوه صغيرا أو كبيرا إلى أجله . ذلكم أقسط عند الله ، وأقوم للشهادة ، وأدنى ألا ترتابوا ، إلا أن تكون تجارة حاضرة تديرونها بينكم ، فليس عليكم جناح ألا تكتبوها ، وأشهدوا إذا تبايعتم ، ولا يضار كاتب ولا شهيد . وإن تفعلوا فإنه فسوق بكم ، واتقوا الله ، ويعلمكم الله ، والله بكل شئ عليم »[١] ومما يدل على أن الآية فى توثيق الدين بالكتابة ، للتذكر بين المتعاملين فقط ، أنه جاء بعدها مباشرة آية الاستيثاق للدين بالرهن . فقال تعالى « وإن كنتم على سفر ، ولم تجدوا كاتبا فرهان مقبوضة ، فإن أمن

---

(١) البقرة ٢٨٢

بعضكم بعضا فليؤد الذى اؤتمن أمانته ، وليتق الله ربه ، ولا تكتموا الشهادة ، ومن يكتمها فإنه آثم قلبه ، والله بما تعملون عليم »[1].

أما فى التقاضى والشهادة أمام القاضى . فإن للقاضى أن يحكم بشهادة النساء دون الرجال وبشهادة امرأة واحدة ، وبأية قرينة أو بينة . فإن أقصى ما يطلبه القضاء هو البينة على صدق الدعوى ، والبينة فى الشرع أعم من الشهادة .

فكل ما يتبين به الحق ، ويظهر يقضى به القاضى ، ويحكم حتى إنه قد يحكم بشهادة غير المسلم متى وثق بها ، واطمأن إليها . فاعتبار المرأتين فى الاستيثاق كالرجل الواحد ليس لضعف عقل المرأة ، ونقصان آدميتها وإنسانيتها ، وإنما هو كما قال الإمام « محمد عبده » لأن المرأة ليس من شأنها الاشتغال الكثير بالمعاملات المالية ونحوها من المعاوضات والمبادلات . ومن هنا تكون ذاكرتها فى هذا المجال ضعيفة بينما هى قوية فى الأمور المنزلية والأشياء النسائية ، بل أقوى من ذاكرة الرجل ، ومن طبائع البشر عامة أن يقوى تذكرهم للأمور ، التى تهمهم ، ويمارسونها كثيرا ، ويكثر اشتغالهم بها حتى يكونوا من أرباب الخبرة فيها .

فالآية الكريمة * كما يقول الشيخ شلتوت — جاءت على ما كان مألوفا فى شأن المرأة ، ولا يزال أكثر النساء كذلك لا يشهدن مجالس المداينات ، ولا يشتغلن بأسواق المبايعات فإذا كان المتعاملون فى بيئة يغلب عليها اشتغال النساء بالمبايعات ، وحضور مجالس المداينات كان لهم الحق فى الاستيثاق بالمرأة على نحو الاستيثاق بالرجل متى اطمأنوا إلى تذكرها ، وعدم نسيانها على نحو تذكر الرجل ، وعدم نسيانه ، فالأمر فى الآية الكريمة للإرشاد والتوجيه ، لا للفرض والإلزام . والإيجاب .

وقد نص علماء المسلمين على أن من القضايا ما تقبل فيه شهادة المرأة

---

(١) البقرة ٢٨٣

وحدها ، وهى القضايا التى لم تجر العادة باطلاع الرجال على موضوعاتها كالولادة ، والبكارة وعيوب النساء الداخلية .

والله تعالى فى محكم كتابه قد بين لنا : أن الرجل إذا اتهم زوجته بالخيانة الزوجية ، ولم تكن عنده البينة الكافية فعليه لإثبات دعواه ، أن يشهد أربع شهادت بالله إنه لمن الصادقين والخامسة أن لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين . وعليها إذا أرادت أن تبرئ نفسها أن تشهد كذلك أربع شهادات بالله ، إنه لمن الكاذبين ، والخامسة أن غضب الله عليها إن كان من الصادقين . فللرجل أربع شهادات ، وخامسة . وللمرأة أربع شهادات وخامسة . مثله تماما ، حذوك الشئ بالشئ ، على قدم المساواة بالرجل فى الشهادة واليمين ، للدفاع عن العرض والكرامة ، يقول تعالى « والذين يرمون أزواجهم ، ولم يكن لهم شهداء إلا أنفسهم ، فشهادة أحدهم أربع شهادات بالله إنه لمن الصادقين ، والخامسة أن لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين . ويدرأ عنها العذاب أن تشهد أربع شهادات بالله . إنه لمن الكاذبين ، والخامسة أن غضب الله عليها إن كان من الصادقين »(١).

البَكارة وليلة الزفاف :

« جورديان » من أجل البكارة عند العرب والمسلمين : مغيظ محنق ، يهذى كالمجنون ، ويهرف بما لا يعرف ، ويكرر دعاوى ظاهرة البطلان . فمحمد ﷺ عنده متحامل على النساء ، متحيز للرجال ، لا يسمح للمرأة أن تظهر وجهها إلا للرجل الذى اشتراها من أبيها ، أو أهديت إليه . وهى سجينة محجوزة ، مخبأة عن الأعين . وعلى هذا القدر من كلامه قد نجد الرد كافيا فيه : أن نكرر له ما سبق أن قلناه .

من أنه : ليس فى الإسلام بيع المرأة ، أو هبتها لزوجها . ولكن خطبة ومهر

(١) النور ٦ – ٩

وزواج . وأن الإسلام قد أباح للمرأة الخروج للصلاة ، ومزاولة الأعمال ، وأباح لها كشف الوجه واليدين ، إلا أننا ماذا نقول ؛ فى قوله بعد ذلك عن الفتاة البكر « إنها لا تستطيع أن تكون مجرد إنسان له أحاسيس ، يريد أن يعبر عنها لأنها ترهب وتمتنع من أجل مسألة « البكارة » فالعجب العجاب من أنه يصور البكارة بصورة صمام الأمان للعرض والشرف . ثم يكون آسفا لذلك . فهل هناك فطرة سليمة تكره الشئ الطبيعى الدال على أن الفتاة طاهرة السلوك لم تتصل برجل قبل رجلها ! هل هناك أحد يكره براهين الشرف وأدلة العفاف التى جاءت طبيعة وفطرة ، فطر الله الناس عليها ! كلاّ . بل هناك نفوس مريضة منحلة ترى أن اتصال الفتاة برجل قبل رجلها ، ربما يرفع قيمتها لأنها تكون قد اكتسبت شيئا من المران والتدريب ، وسابق الخبرة . أَلَيْسَتْ هناك شهادة اسمها شهادة الخبرة ؟

يقول « جورديان » فى تبرير فلسفته الشيطانية الشهوانية : « كيف تلعب الفتاة الرياضة ؟ كيف تركب العجلة ؟ ماذا تصنع إذا جرحت رغما عنها ! هل تذهب إلى طبيب لإثبات الحالة بشهادة تقدمها لزوج المستقبل كبرهان براءة ؟ » .

قل ما شئت يا جورديان فالشرق شرق . والغرب غرب . والعرب عرب . والصهاينة صهاينة « وإنا أو إياكم لعلى هدى ، أو فى ضلال مبين »[(١)] – « لنا أعمالنا ولكم أعمالكم ، سلام عليكم لا نبتغى الجاهلين »[(٢)] إن الفتاة عندنا تلعب الرياضة ، وتركب العجلة ، وتقوم بالأعمال ، وتتعرض للأخطار ، وتكافح فى الحياة ، داخل المنزل وخارجه . ومع ذلك كله تظل عذراء مادام الجنس الملعون من أمثالك بعيدا عنها .

---

(١) سبأ ٢٤

(٢) القصص ٥٥

أما ما ذكره «جورديان» من أن الفتاة التى تخطب لرجل تقوم بفحصها معرّاة فى الحمام : أم الزوج وقريباته ، يفحصون : الشعر والأنف والأذن والأسنان والتنفس والصدر والبطن وإلى هنا يأتى دور القابلة التى تتولى بقية عملية الفحص إلى نهايتها الدقيقة . فهذا شئ لا يعرفه الإسلام الذى شرع فى مثل هذا الموقف عملية الخطبة على أساس من الثقة المفروضة يخطب الزوج زوجته بعد أن يتعرف عليها ، ويسأل عنها ، ويجتهد فى تخيرها ، ويباح له أن يرى وجهها وكفيها ، وربما أكثر من ذلك قليلا . ولا مانع من زيارة أهله لها ، وزيارتها لأهله .

وعلى هذا التشريع الإسلامى الحكيم ، يجرى العمل فى المجتمعات العربية والإسلامية .

كذلك ما ذكره جورديان من فض البكارة ليلة الزفاف بأصابع اليد ، فالإسلام يبرأ من ذلك ، وينهى عنه ، ويعتبره وحشية وحيوانية . وذلك مقرر ثابت وبديهى ، فى تعاليم الإسلام ، والمخالف له لا يعتبر حجة على الإسلام . بل الإسلام حجة عليه .

الختان والحشيش وعقدة الجنس :

تناول جورديان مسألة ختان البنت عند بعض العرب والمسلمين بأسلوب الإشمئزاز لأن تلك النساء اللاتى يسمون بشرا ، يعاملن * فيما يرى * من مهدهم إلى لحدهم كالحيوانات لأن الرجال معذورون يريدون ضمان شرفهم . هكذا يقول . ولكن الواقع أن هذه المسألة لا تجعل البنت معاملة كالحيوانات . ولا علاقة لها بغرور الرجال ، وضمان شرفهم ، وما هى إلا فى بعض بلاد العروبة والإسلام كشئ مستحب فقط ، له اعتبار دينى راجع إلى تكرمة الفتاة ليكون لها ختان وطهارة كما يختن الفتى ، ويطهر بإزالة غلفة الذكر التى أثبت الطب ،

أضرارها إذا بقيت .

وليس فى الإسلام لختان البنت نص موجب ، أو نص محرم ، وهو يختلف باختلاف الأقاليم حارة ، وباردة ، واختلاف العادات الفاشية التى لا بأس على من يفعلها أو يتركها . وقد ذكر جورديان نفسه أنها تعمل فى أواسط إفريقية فى سن أعلى مما عند العرب ، وسماها عيدا كبيرا للأنوثة تشترك فيه كل العائلة ، تقليداً لا يلعب فيه الحياء ، أو الاعتبارات الجنسية أى دور ، لكنه لما أتى على ذكرها عند العرب هاجمها وقبحها ، وأخذ يلف ويدور ، ويتعب نفسه فى التعليل لها حتى جعل من الحبة قبة ، ومن البسيط مشكلا ، فأخذ يستعرض دعوة الداعين ، إلى عدم الختان لأنه ينقص من شهوة المرأة فتحتاج إلى أن يغيب الرجل حين جماعها وقتا طويلا فيعمد إلى تناول المخدرات والحشيش ، ثم يعود فيبطل هذه النظرية . ويقول : إن الختان لا تأثير له فى شهوة المرأة وأن الرجل فى البيئة الإسلامية يتعاطى الحشيش لأن رأسه محشوة بأفكار جنسية تنفجر فى أول مناسبة ، وهو سريع الاستثارة لحرمانه السابق ، وأن برود المرأة جنسيا برود روحى ، لا جسدى ، لأنها مصدومة نفسيا على طول الزمن .

وهذا تعليل غامض ، وغير مفهوم لأنه إذا كان الرجل سريع الإستثارة ، لعقدة الجنس وحرمانه السابق . فلماذا كانت المرأة باردة ، وهى مثله فى هذه الظروف ، وهذا الحرمان ! لماذا لم تكن سريعة الاستثارة هى الأخرى ؟ إن تعليله هذا غير مقبول كالتعليل الأول الذى نقضه فكل من التعليلين لا تظهر له وجاهة ، وكثيرا مالا يوجد ارتباط قط بين الحشيش والجنس فيشربه الأعزب ، ولا يقربه المتزوج الناجح فى زواجه .

والتعليل الأولى بالقبول : إن تعاطى الحشيش عادة مزاجية كتعاطى السجائر والخمور ، وسائر المكيفات ، ووجدت فى بعض البيئات الإسلامية والعربية [1]

(١) كما هى موجودة فى بعض البلاد الغربية والأمريكية كما سيأتى ذكره فى خاتمة هذا الكتاب

كأية عادة مستقبحة لا تقرها عروبة واعية ولا إسلام صحيح ، وقد عمل على إنمائها وإفشائها والترويج لها ، والتجارة فى مواردها ، والإثراء من ورائها : هذا الوباء الذى كان كالسرطان فى حجم الأمة العربية ، وفى بلاد الشرق الأوسط ألا وهو الاستعمار والرأسمالية والاستغلال الذى يمتص دماء الطبقات الفقيرة ، وغير الواعية بهذه الأساليب الشيطانية الجهنمية .

والأمل معقود على وعى الجماهير ، ونشاط المسئولين فى القضاء نهائيا على رواسب الماضى البغيض الملوث بقاذورات الإستعمار .

الـــــربـــــا

وكذلك الشأن فى رذيلة الربا ، التى يقول عنها جورديان : إنها متفشية فى الأوساط العربية والإسلامية .

_ هذه الرذيلة مع أن الإسلام ينهى عنها كان العامل على إشاعتها بين الناس وإلجاء الجماهير الفقيرة وغير الواعية اليها : ماكان يجثم على صدر البلاد من الرجعية والاستعمار ، والاستغلال الرأسمالى الذى يمتص دماء الشعوب من عروقها ، يتركها جثثا هامدة لاحراك بها ، وقد قطعنا شوطا كبيرا فى القضاء على هذه الرواسب البغيضة بطرد الاستعمار ، وتأديب الرجعية ، ومنع الاستغلال ، وإشاعة الروح الوطنية والتعاونية الواعية فى ظل النهضة العربية الإسلامية ، وتمكين أفراد الشعب بسائر طبقاته من المال العام والقطاع العام ، والموارد العامة للدولة ، وإتاحة الفرص أمام المواطنين للعمل والإنتاج ، ورفع مستواهم ، وتمكين العمال والفلاحين من الانتفاع بثمرات جهودهم التى كانوا ينظرون إليها فى لهفة وحسرة حين يشقون فى جمعها وتثميرها لتذهب فى لمح البصر إلى جيوب الخواجات المرابين ، والبنوك الأجنبية والإقطاعية والرأسمالية ، يعمل ويشقى أناس ، ولاجزاء لهم ويتمتع وينعم أناس ولاعمل لهم ، الأمر الذى من أجله انتفضت القاهرة بقيام ثورتها التحررية فى ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ م فغيرت وجه الحكم ونظامه فى مصر ، وطردت الاستعمار وأممت القناة ، وأسست المصانع الكبرى ، عملا منها على أن توفر للشعب بكافة طبقاته حياة الرفاهية والعزة والكرامة . ومن أجله أيضا انتفضت بغداد والعراق بقيام ثورتها فى ١٤ تموز ١٩٥٨ م فغيرت وجه الحكم فى العراق ونظامه وأخذت بعد صراعات طويلة

تتابع مسيرتها الاشتراكية لتوفير الرخاء ، والعدالة الإجتماعية بين كافة طبقات الشعب ، ومن أجله أيضا كانت انتفاضة اليمن ، والجنوب العربي ليتخلص من الملكية الفاسدة والاستعمار البغيض ومن أجله أيضا جرت فى أنحاء كثيرة من العالم العربى والإسلامى انتفاضات كثيرة تقدمية واستقلالية كما جرى فى الجزائر وليبيا والسودان وقبل ذلك سوريا ولبنان .

وأخذ الرؤساء والملوك يعملون على رفاهية شعوبهم وتقدمها كل حسب طريقته الخاصة ، ومن أجله أيضا أسهم العالم العربى والإسلامى إسهاما كبيرا فى قضية العالم الثالث ، عالم عدم الإنحياز ، وفى قضية الدول النامية فى أفريقيا وغيرها والوقوف إلى جانب الدول المكافحة فى كل مكان حتى انبثقت من هيئة الأمم المتحدة لجنة تسمى « لجنة تصفية الإستعمار » .

الإستعمار الذى يعتبر بحق لعنة القرن العشرين ، والذى ذهب الى غير رجعة بعد أن تخلصت البلاد من كابوسه المخيف .

إذا ذهب الحمار بأم عمرو فلارجعت ولا رجع الحمار

ومن نظر إلى أحوال البلاد العربية والإسلامية اليوم ، وبعد أن تبوأت مكانتها المرموقة . بعد حرب العبور ، وانتصارهم الساحق فى معارك أكتوبر سنة ١٩٧٣ م المجيدة والتفاف بلاد العالم حولهم بالتقدير والاحترام ، والتعاون فى مجالات الحياة ، وتبادل الخدمات اقتصاديا وسياسيا وثقافيا لايسع إلا أن يتفاءل ويستبشر بمستقبل باهر مشرق للعرب والمسلمين ، ويكونون فيه قوة يحسب حسابها ، ويعترف بوزنها على الصعيد العالمى . فالنسبة العددية والمواقع الجغرافية والطاقات البترولية والزراعية والخصائص الثقافية والروحية والحضارية والقتالية ، كلها ورقات رابحة فى أيدى العرب والمسلمين ولاسيما وقد أخذوا فى الآونة الأخيرة يتخلصون من التباعية لغرب أو شرق ، ويعلنون استقلال الإرادة وحرية الحركة ويستديرون نحو دينهم ومركز إشعاعهم يحلون حلاله ، ويحرمون حرامه ،

ويأخذون فى تقنين قوانينهم على ضوء شريعة الإسلام الغراء ، رافضين بعزم وإصرار ماسبق أن فرض عليهم الاستعمار من قوانين تحلل ماحرم الله بدعوى أنها المدنية والتقدمية . وأن تعاليم الإسلام أصبحت غير ملائمة لروح العصر والتقدمية «كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذبا »[1].

إن تعاليم الإسلام هى الخلاص لما فيه العالم من فوضى واضطراب وهمجية ، وانحرافات وجهالة جهلاء وضلالة عمياء « قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ، ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ، ويهديهم الى صراط مستقيم »[2].

إن الإسلام حرم الربا فقال تعالى : « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا مابقى من الربا إن كنتم مؤمنين فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله وإن تبتم فلكم رءوس أموالكم لاتظلمون ولاتظلمون . وإن كان ذو عسرة فنظرة إلى ميسرة وأن تصدقوا خير لكم إن كنتم تعلمون[3]» . إن الربا عادة يوجد فى البيئات والمجتمعات التى توجد فيها الطبقية والفوارق المالية البعيدة المدى . الفقر المدقع بجوار الغنى الفاحش والرأسمالية المستغلة وهذا ماكان يمثل دوره الاستعمار والإقطاع وهو ماأخذت المجتمعات العربية والإسلامية فى إزالة آثاره .

الخطيئة الآدمية والغريزة الجنسية

« جورديان » يبشر بالخطيئة ، لاسيما الجنسية . ويفلسف لها مستنصرا بمفهوم فى الدين النصرانى الذى يقرر أن الشخص يولد مذنبا فيه الخطيئة ، بسبب وراثته

(١) الكهف ٥

(٢) المائدة ١٥ - ١٦

(٣) البقرة ٢٧٨ - ٢٧٩

ذلك من آدم وحواء ، لما أذنبا وعصيا ربهما فى الجنة وهو يأسف أشد الأسف لأن هذا المفهوم عن الخطيئة . وتقرير وجودها فى الإنسان بالوراثة وبمجرد الميلاد ، لا وجود له فى الإسلام وعند « محمد » ﷺ ، الذى يوصى بإخماد عطش الأحاسيس والشهوات . ويبدو أن « جورديان » يتمنى أن يستغل الأديان كلها لمآربه ودعوته ، وتبريره للإباحية والرذيلة والخطايا الجنسية . وكيف يكون ذلك والله فى محكم كتابه الكريم يقول : « ليس بأمانيكم ولا أمانى أهل الكتاب من يعمل سوءا يجزيه ، ولا يجد له من دون الله وليا ولا نصيرا [١] »

يقول جورديان : « إن زلات الفتيات والنساء فى العالم الإسلامى ليست خطايا أو ذنوبا كما هى فى المفهوم المسيحى إن الخطيئة الموروثة أو قابلية الإنسان للخطيئة المولودة معه غير معروفة هناك حتى إن محمدا ﷺ يوصى بإخماد عطش الأحاسيس والشهوات بجرعات كبيرة ، يريد أن يقول : إن اعتبار الخطيئة موروثة فى العرف المسيحى ، يجعل الأمر فى الانحرافات الجنسية شيئا هينا.

ولأن المسلمين لايعرفون وراثة الخطيئة فموقفهم من الإنحرافات الجنسية فيه شدة وقسوة مأخوذة عن محمد ﷺ ، الذى أوصى بإخماد عطش الأحاسيس والشهوات بقوة وقسوة فى العقوبات التى فرضها .

ونرد عليه قائلين : إن الخطيئة ليست موروثة فى عرف الدين المسيحى ولاغيره ، بدليل أن التوراة والإنجيل قد صرحا بمسئولية كل فرد عن نفسه مسئولية مطلقة ، فلو كانت الخطيئة موروثة كما يدعى لكان الإنسان مسيرا ، لامخيرا . وكيف يكون ذلك ، وقد أرسل الله الرسل ، وأنزل الكتب ، ووهب عقلا ، وأعد جنة للمطيع ، ونارا للعاصى ؟

فى التوراة يقول الله تعالى بعد ذكر التشريعات التى فرضها على الناس « ملعون من لايقيم كلمات هذا الناموس ليعمل بها » (التثنية ٢٧ : ٢٦) وإن

---

(١) النساء ١٢٣

التوراة لتصرح بأن من لايعمل بالشريعة ، وكذا الإنجيل : لن ينجو من عذاب جهنم فى التوراة العبرانية عن يوم القيامة يقول الله تعالى : « أليس ذلك مكنوزا عندى ؟ مختوما عليه فى خزائنى ؟ لى النقمة والجزاء فى وقت تزل أقدامهم » (التثنية ٣٢ : ٣٤) وفى التوراة السامرية « أليس ذلك مكنوزا عندى ؟ ومختوما عليه فى خزائنى ؟ إلى يوم الانتقام » وفى الإنجيل يقول متى على لسان عيسى عليه السلام « خير لك أن يهلك أحد أعضائك ، ولايلقى جسدك كله فى جهنم وإن كانت يدك اليمنى تعثرك فاقطعها ، وألقها عنك لأن خير لك أن يهلك أحد أعضائك ولايلقى جسدك كله فى جهنم » (متى ٥ : ٢٩ - ٣٠)

ولقد صرح كتاب موسى بأن كل امرئ بما كسب رهين ، وكذلك وضح كتاب عيسى عليهما السلام يقول الله فى التوراة « لايقتل الآباء عن الأولاد ولايقتل الأولاد عن الآباء كل إنسان بخطيئته يقتل » (التثنية ٢٤ : ١٦) وقد أكد هذا المعنى جزفيال (ذو الكفل) فى سفره فقال « النفس التى تخطىء هى تموت ، الإبن لايحمل من إثم الأب ، والأب لايحمل من إثم الإبن ، برّ البار عليه يكون ، وشر الشرير عليه يكون » (حزقيال ١٨ : ٢٠) ولقد جاء فى كتاب موسى نص يفيد انتقال الخطيئة الى الجيل الثالث أو الرابع ، وهذا وإن كان معارضا بالنص الذى ذكرناه أولا وأكده حزقيال فإنه يفيد قصر الوراثة على الثالث أو الرابع من أعداء الله وحدهم . لا إلى العاملين بوصايا الله . أى أنه على فرض صحة النص فإن الوراثة ليست إلى الأبد « إنى أنا الرب الهك إله غيور ، أفتقد ذنوب الآباء فى الأبناء ، وفى الجيل الثالث والرابع من الذين يبغضوننى ، وأصنع إحسانا إلى ألوف من محبىّ ، وحافظى وصاياى » (التثنية ٥ : ٩ : ١٠).

وفى إنجيل متى يقول عيسى عليه السلام فى موعظة الجبل « فكل من يسمع أقوالى هذه ، ويعمل بها ، أشبهه برجل عاقل بنى بيته على الصخر ، فنزل المطر وجاءت الأنهار وهبت الرياح ووقعت على ذلك البيت فلم يسقط لأنه كان

مؤسسا على الصخر . وكل من يسمع أقوالى هذه ، ولايعمل بها ، يشبه برجل جاهل بنى بيته على الرمل . فنزل المطر ، وجاءت الأنهار ، وهبت الرياح وصدمت ذلك البيت . فسقط وكان سقوطه عظيما » (متى ٧ : ٢٤ - ٢٧)

وإننا لنتساءل : هل يمكن أن يكون آباء الدين المسيحى ، قد اخترعوا فكرة الخطيئة وميراثها تبريرا منهم لعقيدة الصلب . المبنية عندهم على : رضاء السيد المسيح بالتضحية بنفسه تخليصا للبشر من الخطيئة الموروثة ؟

إننى لأرجح ذلك . وأرجح أن ذلك كله دخل فى دين السيد المسيح ، وبعد وفاته بثلاثة قرون يقول حبيب جرجس عميد الكلية الإكليريكية بمصر « إن آريوس القس الإسكندرى قد زاغ عن الحق وابتدع بدعاً وعلم خلافا لتعليم الكتاب المقدس بأن السيد المسيح مخلوق وليس مولودا من الأب ، وأنه غريب عن الجوهر الإلهى ، وبما أن هذا التعليم قد أزعج الكنيسة ، ومن شأنه أن يهدم أساسات الدين المسيحى ، وقد كاد يسرى هذا السم فى أعضاء كثيرين فلذلك قام جميع الآباء لإدحاض هذه البدعة ، ثم إن الملك قسطنطين منعا للخصام أمر بعقد مجمع للنظر فى هذا الأمر ، فاجتمع فى نيقية [١] ٣١٨ أسقفا من علماء الكنيسة ، يتقدمهم الكسدروس البابا الإسكندرى وبعد أن استدعوا آريوس ادحضوا بدعته ، وقرروا الاعتقاد بأن المسيح - له المجد - مساو للآب فى الجوهر ، وأنه مولود غير مخلوق ، وقطعوا آريوس من شركة المؤمنين ، وذلك سنة ٣٢٥ ميلادية ، ثم ألقوا الجزء الأول من قانون الإيمان الذى يحتوى على سبع قضايا . . الخ » [٢].

وأيا ماكان الأمر . فلا أظن أن المسيحية تريد ، كما يريد « جورديان » أن تتخذ من القول بهذه النظرية مبررا لشيوع الآثام والذنوب والانحرافات الجنسية ،

---

(١) نيقية : تركيا الآن

(٢) ص ٩٩ - ١٠١ خلاصة الأصول الإيمانية طبعة وزارة المعارف بمصر سنة ١٩٢٦ م

فإنها دين الطهارة والعفة ، والروحانية والصفاء النفسى . وإن الأم التى أنجبت رسول المسيحية أشاد القرآن بطهارتها وعذريتها ولعن اليهود الذين اتهموها بالفاحشة « يامريم إن الله اصطفاك ، وطهرك ، واصطفاك على نساء العالمين »(١) « وبكفرهم وقولهم على مريم بهتانا عظيما » (٢).

إن المسيحية ماتزال تدعو إلى الفضائل ، وتنهى عن الرذائل وقد اعتبر المسيح نفسه جريمة الزنا من أبشع الجرائم وذلك فى قوله « من قلوب الناس تخرج الأفكار الشريرة : زنى ، فسق ، قتل ، سرقة ، طمع ، خبث ، مكر ، عهارة ، عين شرِّيرة ، تجديف ، كبرياء ، جهل . جميع هذه الشرور تخرج من الداخل وتنجس الإنسان » (مرقس ٧ : ٢١ - ٢٣) وإن المسيحية ماتزال تساهم مساهمة فعالة فى تقويم اعوجاج الإنسانية ، علما منها - بما أسلفنا - بأن الإنسان مازال هو الإنسان . من بعد المسيح كما كان من قبل المسيح . لم يطرأ عليه أى تغيير فى ممارسة الخطيئة ، لم يتطهر منها ، ولم يُعصم عنها وسيحاسب عليها أمام الله سبحانه (٣).

وقد بين الله فى كتابه الكريم : أن النصارى أقرب مودة للمسلمين ، ووصفهم بصفات طيبة فقال تعالى : « لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا : اليهود ، والذين أشركوا ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا : الذين قالوا إنا نصارى ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا وأنهم لايستكبرون وإذا سمعوا ماأنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق يقولون : ربنا آمنا

---

(١) آل عمران ٤٢

(٢) النساء ١٥٦

(٣) لوكانت الخطيئة موروثة فى الآدميين قهرا عنهم فلماذا يحاسبون عليها ولماذا أرسل الله الرسل وشرع الشرائع : ولوكانت الخطيئة موروثة عند آدم وحواء ؟ فمن أين ورثها آدم وحواء إن آدم وحواء تابا عن بعض الأكل من الشجرة وقبلت توبتهما والتائب من الذنب كمن لا ذنب له فأين هى الخطيئة إذن حتى تورث ؟ ! والقرآن يقول وعصى آدم ربه فغوى ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى سورة طه .

فاكتبنا مع الشاهدين . ومالنا لانؤمن بالله وماجاءنا من الحق ، ونطمع أن يدخلنا ربنا مع القوم الصالحين ، فأثابهم الله بما قالوا جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك جزاء المحسنين »[١].

أما نحن المسلمين فنعتقد أن الإنسان لم يولد وهو يحمل ميكروب الخطيئة فى جسده أوفطرته بل هو مولود على الفطرة ، فكل مولود يولد على الفطرة فطرة الله التى فطر الناس عليها ، وهى السلامة والبراءة من الكفر والمعصية ، ثم يطرأ عليه الشر بعد ذلك عارضا وافدا على فطرته ، إلا أنه مع ذلك عرضة للخطيئة ضعيف أمام الشهوات والغوايات سريع التأثر بمغريات الشر والفساد المفروض فيه أنه بشر ، وأنه يزل ويعصى ربه ، أحيانا كثيرة لكن برغم ذلك يحذره الإسلام من الشر والوقوع فيه ويلوح له بالعقوبات الرادعة وينظر اليه نظرة فيها الحزم والتهديد والوعيد ليكفه عن مزاولة الآثام ، ويعده بالثواب والنعيم المقيم ، والسعادة فى الدنيا والآخرة إذا التزم طاعة الله ، ونظافة السلوك وعمل الخير ، ويوجب الإسلام على الناس متكافلين متعاونين : الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر . يقول القرآن الكريم « وتعاونوا على البر والتقوى ولاتعاونوا على الإثم والعدوان » ويقول تعالى « كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر ، وتؤمنون بالله » ويقول « ولتكن منكم أمة ، يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، وأولئك هم المفلحون » .

ويعتبر الإسلام أفراد المجتمع فى كل خلية من خلاياه فى رعاية راع يكون مسئولا عنهم ، يوجههم خلقيا ودينيا واجتماعيا ويحافظ عليهم من الشذوذ والإنحراف وفى ذلك يقول نبى الإسلام صلوات الله وسلامه عليه « قال : كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته والأمير راع والرجل راع على أهل بيته والمرأة راعية

---

(١) المائدة ٨٢ — ٨٥

على بيت زوجها وولده فكلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته[1]» .

والمفروض فى الراعى : أن تكون عنده غيرة وروح عالية فى منع الشر والفساد وإشاعة الخير والصلاح ومن ذلك مايوجبه الإسلام على الرجل : أبا أو زوجا أو أخا من رعاية لابنته أو زوجته أو شقيقته رعاية ليس مبناها التحكم والاستبداد أو الاحتقار والتنقيص وانما مبناها الحب والتقدير والتعاون على بلوغ الآمال ، والمحافظة على مقدسات الأمور وليس فى ذلك سلب لحق المرأة فى تقرير مصيرها والتعبير عن أحاسيسها ولانزع المسئولية منها ، والقائها على عاتق أبيها ، أو زوجها كما يدعى « جورديان » فى قوله عن نبى الاسلام « والمرأة فى نظره غير ناضجة عقليا حتى نهاية حياتها مسلوبة الحق فى تقرير مصيرها ، والتعبير عن أحاسيسها تقع مسئولية سلوكها وأعمالها أولا وأخيرا على الأب أو الزوج » .

هل فى رعاية الحاكم لرعيته تنقيص للرعية ، وسلب لحقوقها ؟ كلا بل هو أداء لحقوقها هل فى رعاية الرجل لأولاده حتى الذكور منهم تنقيص للأولاد وسلب لحقوقهم ؟ كلا بل هو أداء لحقوقهم فكذلك ليس فى رعاية الرجل للمرأة تنقيص أو إهانة ، بل هو تكريم وتكامل .

ومع نظرة الحزم والوعيد والتهديد التى ينظر بها الإسلام الى المنحرفين والعصاة والساقطين والساقطات نراه لايغلق أمامهم باب الرحمة ، أو يسد فى وجوههم باب التوبة ، فمن تاب من ذنبه كان كمن لاذنب له يقول تعالى فى محكم كتابه « ياعبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لاتقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا إنه هوالغغفور الرحيم »[2] ويقول « إلامن تاب وآمن وعمل عملا صالحا فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات وكان الله غفورا رحيما ومن تاب وعمل صالحا

---

(١) البخارى باب المرأة راعية فى بيت زوجها

(٢) الزمر ٥٣

فإنه يتوب الى الله متابا [1]) .

والتوبة هى الندم على مافات والعزم على عدم العودة ، ورد المظالم إلى أهلها بقدر المستطاع يقول تعالى « فمن جاءه موعظة من ربه فانتهى فله ماسلف وأمره إلى الله ومن عاد فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون [2] » .

إن الحرية التى يريد « جورديان Gordian » ان يعطيها للمرأة على المدى الواسع حرة فى شرفها وعرضها وعلاقاتها بالرجال وإشباع شهواتها وغرائزها لاقيود لاحدود لادين لاقانون ، لا استشارة ، ولارعاية ، حرية تأنف منها الحيوانات ولاينادى بها إلاّ فى أخس المجتمعات من أبيقورية ، وأرستبية ، ومزدكية ، ويهودية صهيونية ترى الحصول على الذهب بأى ثمن كان .

إن الحرية بهذا المفهوم لايصح القول بإعطائها لاللرجل ولاللمرأة ولايوجد فى سنن الحياة ونواميسها وقوانين المجتمعات حرية مطلقة إلا لله الفاعل المختار ، الواحد القهار ، ماشاء يفعل ، لايسأل عما يفعل . فعال لما يريد ، ولايفعل الا مافيه الحكمة .

إنذار من جورديـان :

ولقد راح « جورديان » يسلك مسالك نفسية ، وضروبا مسدودة عقيمة مفتعلة ليخوفنا عاقبة مانحن فيه من عفة وطهارة واستقامة فيقول :

« إن الرجل – أى العربى المسلم – قد يكون فى العشرين أوالخامسة والعشرين من عمره ، تحشى رأسه منذ نعومة أظفاره بأن المرأة صنف منحط القدر محرم بطبيعته وعندما تتيقظ إحساساته يشعر أنه منجذب بشدة الى تلك الكائنات المحرمة ، وكلما تقدم به السن ، زاد الحجاب كثافة بينه ، وبين المرأة ،

---

(١) الفرقان ٧٠ – ٧١

(٢) البقرة ٢٧٥

وزادت رغبته فيها . وعندما يصبح ذلك غير مطاق بالنسبة له يلقى بنفسه فى أحضان أترابه ليجد عندهم بعض الهدوء ، وراحة البال ، وتصبح المرأة المشتهاة صنفا مكروها وتتحول تلك التى توقظ الأحلام ، ولاتحققها الى عدو ممقوت كل شيء : التفكير ، الكراهية ، الأحلام ، كل ذلك يتركز على المرأة ، ويدور حولها تلك المحرمة المحاطة بالأسرار الخادعة الجذابة ، فالنبضات الجنسية لايمكن إطفاؤها ببساطة كإطفاء النور الكهربائى مثلا ، فهى تتجمع وتصعد ببطء الى الرأس » ثم قال : « إن ذلك أمر مخيف جدا » وساق حديثا عن شاب سورى يمتهن الطب النفسانى يزعم انه اعترف له بأن العرب والمسلمين يقاسون من العقد الجنسية فى التصرفات والسلوك والحب والبغض والثقة بالنفس ثم ساق حديثا عن سيدة ألمانية أرسلت له خطابا تسأله : ماذا تصنع مع زوج مسلم تركى مثقف ، شديد الغيرة عليها من الماضى والحاضر والمستقبل . ويعلل « جورديان » ذلك بأنه مسلم . والمسلمون يفقدون الانسجام الزوجى لتعقدهم جنسيا .

ونحن نقول : إن هذه المبالغات التى حاكها حول غريزة الجنس ، وما تفعله فى نفسية الشاب المتعفف تذكرنا بتلك المبالغات التى حاكها العالم النفسانى اليهودى «فرويد» حول غريزة الجنس ، ورد إليها جميع الغرائز والعواطف والإنفعالات فليس فى الإنسان إلا : جنس . وجميع أعماله وتصرفاته من ألفها إلى يائها راجعة إلى الجنس . وقد خطأه فى ذلك غيره من العلماء الراسخين فى هذه العلوم السيكلوجية .

وأياما كان من مبالغات «جورديان» أو مبالغات «فرويد Froeed» فإننا نحن العرب والمسلمين نعتقد أن الجنس لا يزيد عن كونه إحدى الغرائز ، وقد يكون من أقواها . وللإسلام فى معالجة الغرائز سياسة حكيمة هى التى قالها ، ويرضى عنها علماء النفس الراسخون فى العلم ، سياسة التوسط ، والإعلاء والتوجيه ، والتسامى بالغريزة . لاكبت مطلق ، أو رهبانية فإن الكبت خطر ،

وضار. ولا إشباع مطلق آثم لا حدود له ، فإنه كذلك خطر وضار وكل ما فى الإسلام مما يتعلق بالمرأة ، وغريزة الجنس لا يخرج عن هذا التخطيط السليم الحكيم ، عفة ، وخطبة ، وزواج ، وأسرة فاضلة متكاملة تخطيط بيد الله الحكيم الخبير ، الذى خلق النفوس ، وهو أعلم بما يصلحها ، ويناسب سلامتها واتزانها فرداً ومجموعاً ، ولسنا على استعداد لأن نعدل عن بيان الله وهديه ، إلى أى بيان آخر ، يتنافى معه ، ولا يماشيه ، وما يستوى الأعمى والبصير ، ولا الظلمات ولا النور ، ولا الظل ولا الحرور ، وما يستوى الأحياء ، ولا الأموات .

ولا يستوى وحى من الله منزل وقافية فى العالمين شرود

كيف يتهم الإسلام بتوليده الكبت والعقد بسبب التشرد فى المحافظة على شرف الفتاة وعرضها هذا الإتجاه نفسه موجود فى التوراة مطابقاً لما جاء فى الإسلام حيث جاء فى التوراة ما نصه «إذا اتخذ رجل أمرأة ، وحين دخل عليها أبغضها ، ونسب إليها أسباب كلام ، وأشاع عنها اسماً ردياً . وقال : هذه المرأة اتخذتها . ولما دنوت منها لم أجد لها عذرة ، يأخذ الفتاة أبوها وأمها ، ويخرجان علامة عذرتها إلى شيوخ المدينة ، إلى الباب . ويقول أب الفتاة للشيوخ : أعطيت هذا الرجل ابنتى زوجة فأبغضها . وها هو قد جعل أسباب كلام قائلاً : لم أجد لبنتك عذرة . وهذه علامة عذرة ابنتى ، ويبسطان الثوب أمام شيوخ المدينة ، فيأخذ شيوخ تلك المدينة ، الرجل ويؤدبونه . ويغرمونه بمئة من الفضة . ويعطونها لأبى الفتاة ، لأنه أشاع إسماً ردياً ، عن عذراء من إسرائيل ، فتكون له زوجة ، لا يقدر أن يطلّقها كل أيامه .

ولكن إن كان الأمر صحيحاً ، لم توجد عذرة للفتاة ، يخرجون الفتاة إلى بيت أبيها ، ويرجمها رجال مدينتها بالحجارة حتى تموت ، لأنها عملت قباحة فى إسرائيل ، بزناها فى بيت أبيها فتنزع الشر من وسطك »[التثنية ٢٢ : ١٣ — ٢١] .

علماء الدين الإسلامى

« جورديان » حانق على علماء الدين الإسلامى ، لأنهم فى نظره العقبة الكؤود فى سبيل هذا الذى يسميه ، تقدماً وحضارة ومدنية . يريد لهم أن يكونوا طوع أهوائه وشهواته ، وأداة فعالة فى ترويج سمومه وأفكاره . لماذا تكون هناك ممانعة ضد الإباحية والرذيلة ؟ لماذا تكون هناك مثل وقيم روحية وعقائد سماوية ؟ يقول جورديان عن العلماء « هـم مصر جامعة الأزهر الإسلامية ترن آراؤهم فى آذاننا فى عصرنا هذا كعقائد القرون الوسطى .

لأنهم لا يجيزون منح دم لإنقاذ حياة مفكر حر ، ولأنهم يقولون : إن عقل المرأة لا يكفى لتوليها وظيفة عامة ، وهم فى إيران أشعلوا ثورة كان من ضحاياها ألف شخص لمنع إعطاء المرأة حق التصويت . وهم فى تونس يوصون بعلف النساء بالمكرونة حتى يسمن أطرافهن ، وأجسادهن ، والحاكم الوحيد الذى استطاع أن يقاوم العلماء هو : بورقيبة . وغالبية حكام العالم الإسلامى ما زالوا مكبلين بآرائهم القديمة بالتحامل على المرأة ، بسبب العقيدة التى حفرت فى قلوبهم . بأن الرجل أفضل وأكرم وأعلى شأناً من المرأة . والسبب : هم العلماء الذين كانوا فى تشريعهم مجحفين فى حق المرأة ، مفضلين للرجل . جعلوا فضله ورفعة شأنه : قانوناً إلهياً » .

هذه دعاوى ومفتريات يمليها الجهل ، وسوء التقدير ، والتسرع فى إصدار الأحكام . فلم يصدر الأزهر فتوى بتحريم نقل الدم ، أوفتوى بأن المرأة لا تصلح للوظائف العامة ، ولم يحكم علماء تونس بتسمين المرأة وبياضها واستدارتها وفيما سبق أن شرحناه وبيناه من موقف الإسلام والمسلمين من المرأة

وقضاياها ما فيه الرد الكافى .

إلا أننى أحب أن أقول لجورديان : إن الدين الإسلامى ليس كما يصوره ويتصوره ، وعلماء الدين الإسلامى ليسوا كما يصورهم ويتصورهم ، وإن تشبيه آرائهم بآراء الكنيسة فى القرون الوسطى تشبيه جانبه الصواب .

إن الدين الإسلامى دين رحب الصدر ، يحب البحث والتفكير ، ويحترم النافع والمفيد ، ويعتبر حرية الرأى ويناقشها . وهو دين الفطرة والعموم للناس كافة ، والخلود إلى يوم الدين . دين القيادة والريادة فى مجالات الحياة ومرافقها ، يتبنى كل صالح ، ويساير التقدم البشرى إلى آخر مداه . ولا يجب أن يعيش فى الظلام والجحور والأوكار ، والتاريخ يقول : إن أوربا قضت على أفكار القرون الوسطى ، وتخلصت من سلطان الكنيسة الذى كان يحارب العلم ، ويفرض الجهل . ويقول «أطفئ مصباح عقلك ، واعتقد وأنت أعمى» وتخلصت لأنها أقتبست الأفكار الحرة من تعاليم الإسلام ، وواقع العرب والمسلمين الذين تتلمذ عليهم أهل أوربا لما أحتكوا بهم فى الأندلس ، وصقلية والبندقية ، والحروب الصليبية والرحلات التجارية ، والحج إلى بيت المقدس .

إن الإصلاح الكنسى ، وجميع صيحات التحرر والإنطلاقات الفكرية والعلمية فى أوربا . كان ذلك كله مقتبساً ومأخوذاً عن الروح الإسلامية ، وتعاليم الإسلام ، ومبادئه البناءة الخالدة [1] . والمذهب البروتستانتى الذى نادى به لأول مرة «مارتن لوثر» كان متأثراً فيه إلى حد بعيد ، بما فى الإسلام من حرية الرأى والفكر ، ومناقشة العقائد وذم الإتباع والتقليد الأعمى .

---

(١) انظر كتاب : صلة الإسلام بالمسيحية للمرحوم الشيخ أمين الخولى . ورسالة التوحيد للمرحوم الشيخ محمد عبده . و «اقتباس الإصلاح الأوروبى من الإسلام» و «شمس على الغرب» للكاتبة الألمانية : زجريد هونكة

سل التاريخ يا «جورديان» :

سل التاريخ ينبئك أننا نحن العرب والمسلمين مهد العلم والتعليم ، أحتضناه وليداً ، وتعهدناه يافعاً . لم نكن فى يوم من الأيام أعداء العلم ، وحلفاء الجهل ، ولم يكن إطلاق عصور وسطى إطلاقاً سليماً صحيحاً بالنسبة لنا ، ولكنه إطلاق خاص بالغرب وبلاده .

سل التاريخ ينبئك عن أول من أسس المكتبات ، وفتح المعاهد والجامعات ، وشجع المترجمين وأجزل العطاء للعلماء والباحثين ، وإن كانوا مخالفين له فى الملة والدين .

سل التاريخ ينبئك عما كان فى دمشق وحلب وبغداد ، وقرطبة والإسكندرية والقاهرة والبصرة وفاس . وغرناطة . من مكتبات وجامعات تبحث فى سائر العلوم والمعارف سل التاريخ ينبئك أن أول مدرسة طبية أنشئت فى أوربا على نظام سليم هى التى أسسها العرب فى «سالرن» بإيطاليا .

سل التاريخ ينبئك أن أول مرصد أقيم فى أوربا هو الذى أقامه العرب بأشبيليا .

سل التاريخ ينبئك عن الساعة الدقاقة التى أهداها الخليفة المسلم إلى الملك الأوربى ، فلما سمع القساوسة دقاتها . قالوا : إنها مسكونة بالشياطين .

سل التاريخ ينبئك أن هذه المشاعل العلمية والثقافية فى المباحث الكونية وغيرها إنما كانت تحملها سواعد علماء الدين الإسلامى .

سل التاريخ ينبئك أن أقدم جامعة يعرفها إلى اليوم ، وجه الأرض ، ليست فى باريس ، أولندن ، أو برلين ، أوهمبورج ، وإنما هى فى القاهرة وهى الجامعة الأزهرية التى تضم كلية لدراسة العقيدة والفكر ، وأخرى لدراسة اللغات والآداب ، وأخرى لدراسة الشريعة والفقة المقارن ، وأخرى للتجارة والمعاملات والإدارة ، وأخرى للهندسة ، وللطب وللزراعة ، وغير ذلك من فروع المعرفة

الإنسانية . وقد سبقت الإشارة إلى كلية البنات الإسلامية بهذه الجامعة الأزهرية لتخريج المرأة الرائدة القائدة التى تستضىء فى نهضتها المدنية بوحى الله ، وهدى السماء .

يقول المؤرخ الفيلسوف الأمريكى « درابر » : « إن المسلمين الأولين فى زمن الخلفاء لم يقتصروا فى معاملة أهل العلم من النصارى واليهود على مجرد الإحترام . بل فوضوا إليهم كثيراً من الأعمال الجسام ورقوهم إلى مناصب الدولة الهامة . حتى إن هارون الرشيد وضع جميع المدارس تحت مراقبة يوحنا بن ما سويه . فلم يكن ينظر إلى البلد الذى عاش فيه العالم . ولا إلى الدين الذى ولد فيه . بل ينظر إلى مكانته فى العلم والمعرفة » .

ويقول « غوستاف لوبون » الفيلسوف الفرنسى المشهور « إن العرب أول من علَّم العالم : كيف تتفق حرية الرأى من استقامة الدين » ويقول أيضاً « إن القاعدة عند العرب : جرّب ، وشاهد ، ولاحظ . تكن عارفاً . وعند الأوربيين إلى ما بعد القرن العاشر : إقرأ الكتب ، وكرر ما يقوله الأستاذ تكن عالماً » .

ويقول « سيديو » : « إن العرب أول من أستعمل الساعة الطنانة ، وأول من أتقن الساعة الزوالية ، وأول من أخترع البندول ، وأن الساعة التى أهداها الرشيد إلى الملك شارلمان هى أول ساعة عرفها الإفرنج » .

إن دين الإسلام كله تقدير للعلم والعلماء ، والفكر والمفكرين ، وعلماء الدين الإسلامى يعلمون ذلك ، وينطبعون به ، ويعملون على ضوئه ، فكل ما ينسب إليهم من الجهل ، أو التعصب ، أو ما شاكل ذلك : فزور وبهتان .

إن علماء الدين الإسلامى غير منفصلين عن الحياة العامة ، إن اليقظة السياسية والوطنية والنهضة الإجتماعية الإستقلالية التى سرت روحها فى ربوع الوطن العربى والإسلامى للتخلص من وباء الإستعمار والإستبداد . لو تعمقنا فى دراستها لأمكننا أن نلمح فيها جهود رجال الدين ومساندتهم من الشيخ جمال

الدين الأفغانى الذى أنطلقت صيحاته الدينية توقظ النائمين ، وتزلزل عروش الظالمين إلى الشيخ محمد عبده الذى أدلى بدلوه فى السياسة والوطنية ، وحاول « هانوتو» و« رينان » فى أصول العقائد الإسلامية فأفحمهما . إلى البطل أحمد عرابى المناضل السياسى الدينى ضد الرجعية والإستبداد إلى الشيخ على يوسف والشيخ سعد زغلول وغيرهم وغيرهم من رجالات الوطنية والنهضات الإجتماعية التى لا تستغنى عن الإهتداء بهدى الدين والإعتناء بالقيم الروحية ، وجعلها أساساً للتقدم المادى إلى أن كان الوعى الثورى العربى الذى تفجر فى ثورة سنة ١٩٥٢ م بالقاهرة ، والذى بنى نهضتنا الوطنية والسياسية على أساس دينى واع سليم . فطرد الإستعمار من البلاد ، وطارده فى كل مكان ، وكان تاجاً توجت به جميع الجهود الماضية ، والإرهاصات السابقة إذ انتصرنا هذا الإنتصار الباهر فى أكتوبر المجيد من سنة ١٩٧٣ م بعد أن أخذنا على عاتقنا بناء دولتنا على العلم والإيمان ، فكانت صيحات جنودنا المؤمنة ، وهى تعبر قناة السويس ، وتدمر خط « بارليف» وتندفع إلى قلب سيناء تزلزل الأرض تحت أقدام الأعداء ، وهى تقول : « الله أكبر» .

لقد تحققت مخاوف النائب الإنجليزى الذى قال فى مجلس العموم أيام الإحتلال البريطانى فى مصر « لن تثبت لنا قدم فى مصر . ما دام الأزهر فيها » لقد كان يعنى أن جامع الأزهر كان هو المحرك والدينامو الروحى والفعلى للثورات والمتاعب التى كانت تشن على الإحتلال الإنجليزى . وكان الحصن الثورى التليد الذى خرج منه الطالب الأزهرى «سليمان الحلبى » فتوجه إلى «كليبر» قائد جيوش الإحتلال الفرنسى فى مصر ، فقضى عليه بسكّينه الذى كان مشحوذاً شحذاً روحياً . قبل أن يشحذ شحذاً مادياً . ومن سماحة الأزهر ، ورحابة صدره أن عرف القساوسة الوطنيون المصريون طريقهم إلى منبره ، يتبوأون قمته فى الثورات الوطنية ليغلنوا وحدة الوطن ، ووقوفه صفاً واحداً فى وجه الإستعمار

ليأخذ عصاه ويرحل .

وليس إعتباطاً ولا صدفة أن الرئيس الراحل جمال عبد الناصر ، أعلن القتال فى القنال من فوق منبر الأزهر سنة ١٩٥٦ م فقد كان الهدف : إعطاء الدفعة بالسلاح طاقة ، وشحنة من العقيدة الدينية التى تجعل من الموت فى ساحة القتال شهادة فى سبيل الله . توجب لصاحبها جنة الله .

إن « آية الله كاشانى » عالم إيران الإسلامى ، كان يطرد الإنجليز من « عبدان » و « إيران » يوم ساند « مصدّق » فى نضاله السياسى ، الوطنى وقال « كاشانى » قولته المشهورة « على الإنجليز الكلاب ، مصاصى الدماء أن يخرجوا من بلادنا » .

إن هذه الحقيقة التى غفل عنها « جورديان » قد أدركها وقدرها الباحثون من المفكرين والمستشرقين حيث يقول أحدهم « إن الإسلام تتركز مهابته اليوم فى ثلاثة أشياء : الكعبة ، والقرآن ، والأزهر هنا هم علماء الدين الإسلامى الذين يصفهم جورديان كذباً بالتخلف والرجعية . ويقول الأستاذ الدكتور فؤاد زكريا فى مجلة « روز اليوسف » عدد أغسطس ١٩٧٦ م مؤيداً هذه الحقيقة . ما نصه : « على أن أروع نماذج إتخاذ الدين قوة تحررية ضد الإستعمار قد تمثل فى عالمنا العربيّ فقد تنبه المستشرق الفرنسى « جاك بيرك » الذى عاش فترة طويلة من حياته فى شمال إفريقيا ، إلى الدور الكبير الذى لعبه الدين الإسلامى فى الثورة الجزائرية ، وفى حركة مقاومة الإستعمار الفرنسى فى شمال إفريقيا عامة . وجعل من هذه الظاهرة موضوعاً رئيسياً لعدد غير قليل من كتبه ، وكانت الحقيقة التى توصل إليها : هى أن الدين فى هذه المنطقة من العالم لم يكن على الإطلاق عاملاً مخدراً للشعوب ، بل كان على العكس من ذلك سلاحاً عظيم الفاعلية ، نبه الشعوب إلى حقوقها ، وساعدها على حفظ أصالتها ، وصون تراثها فى وجه استعمار يملك قدرة هائلة على التغلغل والتسلط . لا فى الميدان السياسى

والإقتصادى فحسب ، بل فى الميدان الفكرى والحضارى أيضاً . فتمسك شعوب تونس والمغرب والجزائر بقيمهم الدينية فى عصر الإستعمار الفرنسى لم يكن على الإطلاق من قبل « الدروشة » أو التخدير ، بل كان هو القوة التى أعانتها على التصدى لمحاولات القضاء على هويتها وأصالتها . وهكذا أفلحت هذه الشعوب فى مقاومة جهود فرنسا من أجل تغريبها – وأنا أستخدم كلمة « التغريب » هنا ، بمعنيين متكاملين : معنى الإغتراب عن الذات وتراثها وأصالتها من جهة ، ومعنى إصطباغ بالصبغة الغربية من جهة أخرى – بفضل تشبثها بطوق النجاة الأخير الذى بقى لها ، وهو القيم الدينية . على أن هذا النموذج لا يقتصر على شمال إفريقية ، أو على الأمثلة التى أشار إليها « جاك بيرك » فحسب . ففى مصر كانت كثير من الثورات الشعبية ضد الإستعمار تتخذ طابعاً دينياً ، وذلك منذ وقفة الشيخ عمر مكرم الوطنية الرائعة ضد طغيان الحملة الفرنسية فى نهاية القرن الثامن عشر ، وأوائل القرن التاسع عشر ، حتى الدور البطولى الذى قام به رجال الدين المسلمين والمسيحيين فى ثورة ١٩١٩ م .

وفيما بين هذين الموقفين كان لرجال الدين دور لا ينكر فى ثورة عرابى ، بل إننى ، وإن لم أكن مؤرخاً أتصور : أن حلقة الذكر المشهورة التى قيل : إن عرابى أقامها عشية موقعة التل الكبير وهى الموقعة التى كان يعرف أنها حاسمة فى تقرير مصير البلاد إزاء الإحتلال البريطانى ، كانت لها – إذا كانت قد حدثت بالفعل – دلالة رمزية بالغة . فتفسيرها الظاهرى هو أنها كانت دليل التخلف فى وجه قوى استعمارية تستند إلى أحدث أساليب التكنولوجيا المعروفة فى ذلك الحين . ولكن تفسيرها الأعمق : هو أنها كانت محاولة لإستخراج القيم الدينية من أعماق الوجدان الشعبى كيما يستمد منها الشعب طاقة يدافع بها عن هويته الأصيلة ضد خطر دخيل . فهنا فى ساعة الخطر ، كان الدين صيحة تتجمع بها القوى الشعبية تحت لواء واحد ضد العدو الذى يهدد كل القيم والمقدسات » .

وهكذا كانت الحوافز الوطنية والدينية متفاعلة معاً فى مجال الكفاح لنيل الحقوق ، وطرد الظالمين وإسعاد المواطنين ، لا كما يتعاون رجال الدين ، والكنيسة فى الغرب مع حكوماتهم فى مجال استعمار الشعوب واستغلالها والتبشير بالدين المسيحى بطرق وأساليب تبوء فى أكثر أمرها بالفشل ، لأنها شبيهة بأساليب القرون الوسطى . وتتنافى مع تعاليم المسيحية نفسها التى تأبى إيقاد نار الحروب وتجريد حملات القتل وسفك الدماء باسم الدين . والدين من ذلك برىء ، براءة الذئب من دم ابن يعقوب .

وما فظائع الإستعمار الصليبى فى الحروب الصليبية عن أذهان المؤرخين ببعيدة . وما فظائع الإستعمار الغربى الإنجليزى والفرنسى والإيطالى ، وما فعله ببلاد العرب والمسلمين من الفظائع والويلات وإراقة الدماء ظلماً وعدواناً عن أذهاننا ببعيدة . من مظاهر الدعاية المسمومة ضد الإسلام والمسلمين هذا النشيد الذى كان يردده جنود الإحتلال الإيطالى فى ليبيا «يا أماه أتمى صلاتك ، ولا تبكى . بل أضحكى وتأملى . ألا تعلمين أن إيطاليا تدعونى ، وأنا ذاهب إلى طرابلس مسروراً وفرحاً لأبذل دمى لسحق الأمة الملعونة ، لأحارب الإسلام ، الذى يجيز تعدد البنات للسلطان ، سأحاول بكل قوتى أن أمحو القرآن» ألم يدخل «اللورد اللنبى» فلسطين ممثلاً للإحتلال وهو يقول «الآن انتهت الحروب الصليبية» ؟ والمعتمد الفرنسى فى دمشق ألم يركل قبر صلاح الدين الأيوبى ، وهو يقول «لقد جئنا يا صلاح الدين» ؟

خـاتمـة الكتـاب

استعرضنا فيما مضى دعاوى هذا الكاتب ومفترياته ، ورددنا عليها بما حضرنا من الحقائق والمعلومات ونستطيع الآن بنظرة شاملة إجمالية : أن نلاحظ أن مقال هذا الكاتب عبارة عن : محاولة جريئة تخريبية موجهة إلى العروبة والإسلام ، وتتركز فى ثلاث مسالك سلكها : -

المسلك الأول : دعوته بطريقة سافرة هيستيرية ، وتحت ستار الحرية ، إلى التحلل من القيم الرفيعة التى يتحلى بها العرب والمسلمون من الشرف والفضيلة والعفاف . وكثيراً ما رأيناه يسخر من هذه الكلمات النبيلة ويدعو بحرارة نادرة المثال إلى الإباحية والتهتك والإنحلال كأنما يريد أن يصدّر إلى بلاد العروبة والإسلام شحنات من النجاسة والقذارة التى تتحلى بها بعض المجتمعات الغربية التى ظهرت فيها فرق الخنافس المخنثة ، والدعوة علناً إلى إيجاد الجنس الثالث ، والإباحة القانونية للشذوذ الجنسى . هذه الأشياء وغيرها التى أخذ اليهود على عاتقهم نشرها ، والتبشير بها حتى انتقلوا بها من أوربا إلى أمريكا . تنفيذاً لمخططهم الذى جاء فى كتاب « بروتوكلات حكماء صهيون » : فى قولهم « وسيظل يعمل على إشاعة الجنس ، وتمجيده حتى يفسد شباب العالم فيسهل علينا التحكم فى العالم والسيطرة عليه » .

جاء فى مجلة منبر الإسلام المصرية عدد المحرم ١٣٨٦ هـ صفحة ١٨٢ ما نصه « نقلت وكالة أنباء ا . ب الأمريكية يوم ١٨ الماضى إلى العالم هذا النبأ : كشفت سلسلة التحقيقات التى تجريها السلطات الأمريكية أن موجة تعاطى المخدرات والإتجار فيها لم تكن قاصرة على طالبات وطلاب جامعة « أوهايو »

وحدها ، بل تفشت فى عدد كبير من الجامعات الأمريكية الكبيرة ، كما أثبتت هذه التحقيقات : أن طلبة وطالبات هذه الجامعات يمارسون العلاقات الجنسية غير المشروعة ، على أوسع نطاق ، وقد أعتقل البوليس أكثر من ٣٠ طالباً من الجامعات الأمريكية للتحقيق معهم فى تهمة الإتجار بالمخدرات وبين هؤلاء الطلبة واحد من جامعة « ميامى » ألقى القبض عليه هو وزوجتة أثناء محاولتهما تهريب ٥ أرطال من الحشيش . وجاء فى تقرير لأحد المحققين أن نحو ألف شخص يقيمون فى المنطقة الواقعة فيها جامعة « واشنطن » يتعاطون الحشيش ، ويمارسون كل أنواع الشذوذ الجنسى ، ويحقق المسئولون فى جامعة « أوكلا هوما » فى ... تهريب النساء إلى داخل مبانى الجامعة لممارسة العلاقات غير المشروعة فى ... الإجازة » .

بالجنس أستولى اليهود على أرض فلسطين ، ودقوا أوتادهم فيها لأول الأمر ، وبالجنس عاثوا فساداً فيها ، وأنشأوا بنات الهافانا ، وشبكات التجسس والمخابرات ، يلعب فيها دوراً بارزاً ، وبالجنس وبإحدى بنات إسرائيل واتصالها بملك فارس عادوا من الأسر البابلى إلى أورشليم لعبتهم المفضلة أينما كانوا هو الجنس ، والتأثير به ، واستعماله وسيلة لإقتناص الضحايا . وأدوات الزينة ، وملابس الخلاعة ، والصور العارية ، وكل ما يثير الجنس إنما يقوم به فى أنحاء العالم اليهود ، وشركات اليهود ، وبيوتات اليهود . فالجنس عندهم هو اللغة العالمية التى يسهل التفاهم بها وتوصل إلى المطلوب من أقصر طريق .

المسلك الثانى : الطعن الجرىء فى دين الإسلام ، ونبى الإسلام ، ومبادئ الإسلام ، وعلماء الإسلام ؛ لإعتقاده أن هذه هى الحوافظ والسياجات التى تحمى العرب والمسلمين ، وبلاد الشرق عامة من أن تصاب بجرائيم هذه الأمراض الإجتماعية الفتاكة . إنها المصل الواقى الذى يعطى حصانة تامة ضد ما يفد من الغرب من وضاعات وقاذورات ، ولقد كان الإستعمار يفطن إلى ذلك

من زمان مضى ، ويجأر بالشكوى من القرآن الكريم ، لأنه يعطى البلاد الإسلامية مناعة ضد الإستعمار ، ويثير له فيها المتاعب بما يبث فى أتباعه المسلمين من روح العزة والكرامة والجهاد ضد الكفرة أعداء الله الظالمين الباغين . الأمر الذى من أجله كانت المخططات الإستعمارية ، تلازمها مخططات أخرى من حملات الطعن ، والتشهير بالإسلام يضطلع بها جماعة المستشرقين الذين انكشفت لعبتهم ، ولم تنطل على أحد حيلتهم . ورد الله كيدهم فى نحرهم .

ومن هنا ننصح للقائمين على مناهج التعليم فى سائر أنحاء البلاد العربية والإسلامية : أن يجعلوا الدين : قرآناً وسنة مادة أساسية فى المدارس والجامعات . ولن يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها .

المسلك الثالث : محاولة إبراز العرب والمسلمين فى صورة شعوب متخلفة ، غير حضارية (١) متجاهلاً إن كان يعرف ، أو جاهلاً إن كان لا يعرف . إن العرب والمسلمين قد قاموا على مسرح هذا الوجود بأدوار بطولية لم تقم بمثلها أمة من الأمم ، وإنهم إقتادوا القافلة الإنسانية من مراحل مظلمة بظلمات الجهل والظلم إلى مراحل مضيئة بنور العلم والعدل . فكان إنسان ما بعد ظهور الإسلام فى الشرق والغرب غير إنسان ما قبل ظهور الإسلام . كان فى حالة يرثى لها من الفوضى والإضطراب وفساد الحكم وفساد الذمم والضمائر وتسلط الرؤساء على المرؤوسين . فلما كان الإسلام وانتشر فى العالم بسرعة لم يعد لها نظير فى التاريخ أشاع بين الناس معانى الحق والخير والفضيلة والعدالة وحرية الرأى واحترام

---

(١) كانت إسرائيل فى حرب الخامس من يونية ١٩٦٧ تردد هذه النغمة ، وتدعى أنها رسوله الحضارة الأوروبية والأمريكية الى بلاد العرب والمسلمين بلاد التخلف والهمجية . وجيش الدفاع الإسرائيلى الطويل الذراع لا يقهر وهو يضرب فى الأعماق العربية . فلما كانت معركة العبور ١٩٧٣ ظهر زيف هذه الأسطورة وانقلبت توازن القوى وأقبل العالم كله على استراتيجية هذا العبور ليتدارسها ، وصدر العرب لاسرائيل الهزيمة والمرارة . التى لا تزال ولن تزال تعانى من أثرها .

الإنسان لأخيه الإنسان وبساطة العقيدة الدينية . والتوفيق بين العقل والدين وبين الدنيا والآخرة. ووجد الناس فيه منهاجاً واضحاً ، موافقاً للفطر السليمة متكفلاً بسعادة الدنيا والآخرة . فما زالوا من أجل هذه المعانى النبيلة يقبلون عليه ويندمجون فيه حتى أصبح المسلمون اليوم ألف مليون نسمة فصاروا ثلث سكان العالم . فى كل ثلاثة أشخاص مسلم واحد .

إن أحداث التاريخ بعد ظهور الإسلام ، صغرت أو كبرت فى الشرق ، أو فى الغرب . حربية أو إجتماعية ، أو حضارية ، أو علمية مردودة إلى الإسلام متأثرة به ، كصدى وانعكاس له . يقول المرحوم الأستاذ محمود العقاد فى كتابة « عبقرية محمد » : —

« إن التاريخ كله بعد محمد متصل به ، مرهون بعمله ، وإن حادثاً واحداً من أحداثه لم يكن ليقع لولا ظهور محمد ، وظهور عمله ، فلا فتوح الشرق والغرب ، ولا حركات أوربا فى العصور الوسطى ، ولا الحروب الصليبية ، ولا نهضة العلوم بعد تلك الحروب ، ولا كشف القارة الأمريكية ، ولا مساجلة الصراع بين الأوربيين ، والآسيويين ، والأفريقيين ، ولا الثورة الفرنسية ، وما تلاها من ثورات ، ولا الحرب العظمى ، ولا الحرب الثانية ، ولا حادثة قومية أو عالمية مما يتخلل ذلك جميعه ، كانت واقعة فى الدنيا كما وقعت لولا ذلك اليتيم الذى ولد فى الجزيرة العربية بعد خمسمائة وإحدى وسبعين سنة من مولد المسيح » .

ويقول مؤلف « قصة الحضارة » « ول ديورانت » : « **وإذا حكمنا على العظمة بما كان للعظيم من أثر فى الناس قلنا : إن محمداً كان من أعظم عظماء التاريخ فقد أخذ على نفسه أن يرفع المستوى الروحى والأخلاقى لشعب ألقت به فى دياجير الهمجية حرارة الجو ، وجدب الصحراء ، وقد نجح فى تحقيق هذا الغرض نجاحاً لم يدانه فيه ، أى مصلح آخر فى التاريخ كله . وقل أن نجد إنساناً**

غيره : حقق كل ما كان يحلم به ، وقد وصل إلى ما كان يبتغيه عن طريق الدين » .

وقال فى موضع آخر « والقرآن يبعث فى النفوس الساذجة أسهل العقائد ، وأقلها غموضاً ، وأبعدها عن التقيد بالمراسم والطقوس ، وأكثرها تحرراً من الوثنية ، والكهنوتية . وكان له أكبر الفضل فى رفع مستوى المسلمين الأخلاق والثقافى ، وهو الذى أقام فيهم قواعد النظام الإجتماعى ، والوحدة الإجتماعية ، وحضهم على اتباع القواعد الصحيحة ، وأوجد بينهم درجة من الإعتدال . والبعد عن الشهوات لم يوجد له نظير فى أية بقعة من بقاع العالم » .

ويقول المستشرق المعروف « ماسبنيون » : « للإسلام ماض بديع من تعاون الشعوب وتفاهمها ، وليس من مجتمع آخر له ، مثل ما للإسلام من ماض كلل بالنجاح فى جمع كلمة مثل هذه الشعوب الكثيرة المتباينة على بساط المساواة فى الحقوق والواجبات » .

ويقول المؤرخ المعاصر « هـ . ج . ويلز » فى كتابه « فى معالم التاريخ الإنسانية » : « إن الإسلام ساد لأنه كان خير نظام إجتماعى وسياسى ، استطاعت الأيام تقديمه ، وهو قد انتشر . لأنه كان يجد فى كل مكان شعوباً ، تسلب وتظلم ، وتخوف ، ولا تعلم ، ولا تنظم . كذلك وجد حكومات أنانية سقيمة لا اتصال بينها ، وبين الشعب أصالة .

كان الإسلام أوسع وأحدث وأنظف فكرة سياسية اتخذت سمة النشاط الفعلى فى العالم حتى ذلك اليوم ، وكان يهب بنى الإنسان نظاماً أفضل من أى نظام آخر ، وكان النظام الرأسمالى الإسترقاقى فى الإمبراطورية الرومانية والأدب والثقافة والتقاليد الإجتماعية فى أوربا . قد انحلت انحلالا تاماً ، وانهارت قبل أن ينشأ الإسلام » .

ويقول مؤلف « قصة الحضارة » : « لقد ظل الإسلام خمسة قرون على الأقل

يتزعم العالم كله ، فى القوة والنظام . وبسطة الملك ، وجميل الطباع والأخلاق وفى إرتفاع مستوى الحياة ، وفى التشريع الإنسانى الرحيم ، والتسامح الدينى والآداب والبحث العلمى والعلوم ، والطب والفلسفة » .

* * *

« وبعد » :

فقد بزغ فجر الإسلام أول ما بزغ ، والعالم تتنازع سيادته دولتان جبارتان أحدهما شرقية وهى الدولة الفارسية ، والثانية غربية وهى الدولة الرومانية ، وما لبث الإسلام أن ظهر على مسرح الوجود قوة ثالثة أذالت هاتين الدولتين ، وورثت بلادهما وأشاعت فيهما ، وفى أنحاء العالم كله حضارة جديدة مثالية .

واليوم تتنازع سيادة العالم قوتان جبارتان إحداهما شرقية شيوعية والثانية غربية رأسمالية فهل يعيد التاريخ نفسه فيبرز العرب والمسلمون على مسرح الوجود قوة ثالثة لها كيانها المستقل ، وفاعليتها المتميزة المطبوعة بطابع الإسلام وحضارته ؟

أعتقد أن ذلك قد صار وشيك الحصول . توالت بوادرد وبشائره بعد انتصار رمضان المبارك ١٣٩٣ هـ هذا الإنتصار الذى جعل العرب والمسلمين قبلة أنظار العالم من جديد كما كان من قبل . ذلك تحقيقاً لوعد الله .

« وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض ، كما استخلف الذين من قبلهم ، وليمكنن لهم دينهم الذى أرتضى لهم ، وليبدلنهم من بعد خوفهم أمناً . يعبدوننى لا يشركون بى شيئاً ، ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون » .

فهرس الكتاب